تاريخ المصريين ٩٠

معاملة غير المسلمين في الدولة الاسلامية

د . نريمان عبد الكريم أحمد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/عبد العظيم رمضان

القاهرة



الإخراج الفنى : مراد نسيم

معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية

تأليف
د. نريمان عبد الكريم أحمد
مدرس التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة المنوفية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون »

صدق الله العظيم

سورة آل عمران (آية ٦٤)

تقــــــديم

يسرني أن أقدم للقارىء العـــــزيز هذا الكتاب القيم عن « معاملة غير المســــلمين فى الدولة الاسلامية » للدكتورة نريمان عبد الكريم أحمد ، مدرس التاريخ الاسلامى بكلية الآداب جامعة المنوفية . وقد سبق لهذه السلسلة أن قدمت لها كتاب « المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى » ، الذى صدر فى العدد ٦٦ .

وبهذا الكتاب تكون هذه السلسلة قد أظهرت أهتمــــامها بالعلاقة بين المسلمين والأقباط خاصة ، وأهل الذمة عامة ، فى مصر ، على نحو يهيىء مجموعة قيمة من المراجع التاريخية . فقد قدمت للدكتورة سيدة اسماعيه كاشف كتاب : « مصر فى فجر الاسلام » و « مصر الاسلامية وأهل الذمة » . و « مصر فى عصر الولاة » ، وقدمت للدكتور سلام شافعى محمود كتاب : « أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول » وللمؤرخ « تريتون » كتاب : « أهل الذمة فى الاسلام » ، الذى ترجمه المؤرخ الكبير الدكتور حسن حبشى . هذا فى التاريخ الاسلامى . أما فى التاريخ الحديث فقد قدمت السلسلة كتاب الدكتور محمد عفيفى : « الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى » . وبذلك تكون هذه السلسلة هى أول سلسلة تقدم للمكتبة العربية هذا العدد المتميز من الكتب التاريخية التى تعالج العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة .

والكتاب الذى بين ايدينا يتناول فى الفصل التمهيدى تحديد المفهوم الخاص بأهل الذمة . والمنهج الاسلامى فى معاملتهم . أما الفصل الثانى فيتناول الحرية الدينية والمدنية التى تمتع بها أهل الذمة فى الدولة الاسلامية بالمقارنة بما نالوه من هذه الحريات قبل الاسلام . وأما الفصل الثالث فتناول الوظائف التى شغلها أهل الذمة فى العصر الاسلامى . وتناول كل من الفصلين الرابع والخامس دور أهل الذمة فى الحياة الاقتصادية فى الدولة الاسلامية ، وأحوالهم الاجتماعية والثقافية . وكل ذلك بالاستناد الى المصادر التاريخية الأولية .

وأملى أن يجد القارىء العزيز فى هذا الكتاب ما ينشد من فائدة ومتعة .

والله الموفق ..

الهرم فى ١٤/٩/١٩٩٥!

رئيس التحرير

أ . د . عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

قامت الدولة الاسلامية فى بدايات القرن السابع الميلادى ، فى وقت استشرى فيه الظلم فى أرجاء المعمورة ، حيث كان رعايا امبراطوريتى الفرس والروم يسانون من حكم استبدادى جائر ، كما لم يكن هنـــــاك حـــــرية دينية بل كانت الدولة البيزنطية تموج بالانشقاقات الدينية وحاولت أن تجبر رعاياها على اعتناق مذهبها الرسمى مما أدى الى حدوث ســلسلة من الاضطهادات الدينية ، كما حاربت الدولة الساسانية كل حـــركة دينية كانت تهدف الى الاصلاح .

فجاء الاسلام فى خضم هذه الظروف ، بأفكاره السمحة ليرسخ مبادىء العدل والمساواة والتكافل الاجتماعى بين الناس . ولما كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد بعث للناس كافة ، فكان لابد من توجيه الدعوة الاسلامية الى بلاد العرب وخارجها فخرجت الجيوش العربية تنشر الدين شرقا وغربا واستطاعوا فى فترة وجيزة أن يضموا الامبراطوريتين السابقتين حيث استطاعت الحركة الاسلامية

أن تمضى قدما لأن أهالى البلاد المفتوحة وجدوا فى الاسلام ضالتهم المنشـــودة .

ولما كانت الدعوة الى الاسلام تقوم من خلال اطلاق الحرية الكاملة للناس وعدم اجبارهم على الدخول فيه نشأ عن ذلك احتواء المجتمع الاسلامى أعدادا من غير المسلمين من رعايا الفرس والروم من النصارى واليهود والمجوس والصابئة الذين شكلوا جزءا من هذا المجتمع تحت حكم الدولة الاسلامية .

وفى الحقيقة من يتصدى لمعالجة هذا الموضوع يواجه بعديد من المصاعب منها : بعثرة المادة التاريخية فى بطون المصادر ، كذلك الامتداد الزمانى والمكانى للدولة الاسلامية ، فضلا عن أنه يجب على الباحث أن يكون على يقظة تامة وأن يلتزم بالموضوعية فى معالجة مثل هذه الموضوعات التى تمس الطوائف الدينية التى عاشت فى كنف دولة اسلامية كبرى .

وقد اتبع فى البحث منهج يقوم على أساس استقراء النصوص وتحليلها ومناقشـــة آراء المؤرخين المحدثين فى اطار تاريخى موضوعى بمعنى أن البحث قسم الى عدة موضوعات عولج كل موضوع فى فصل بذاته من خلال التسلسل التاريخى وعول البحث على الاهتمام بالعراق ومصر على وجه الخصوص باعتبارهما كانتا تمثلان مركزين للخلافة الاسلامية فى وقت ازدهارها الى جانب الالمام بما كان يحدث فى الأندلس ، وغيرها من الدول التى شملتها دار الاسلام .

ويشتمل التمهيد على تحديد المفهوم الخاص بغير المسلمين وما اطلق عليهم آنذاك من اصطلاح أهل الذمة والفصل الأول يشمل المنهاج الاسلامى فى معاملة غير المسلمين من خلال النصـــوص

القرآنية والسنة النبوية ثم الدعوة الى الاسلام فى ضوء هذا المنهاج وما ترتب عليها من ابرام عهود الأمان مع أهالى البلاد المفتوحة وما أتيح لغير المسلمين من حريات كفلها لهم الاسلام ، ثم تعرض للجزية والوقوف على طرق جبايتها والشرائح المعفاة منها ثم يتنـــــاول الخراج وأخيرا يقف على ما وضعه الفقهاء من شروط لعقد الذمة فى ضوء بعض الأمور المتعلقة بها من الزام غير المسلمين بالغيار وعدم بناء الكنائس .

أما الفصل الثانى فقد تناول الحرية الدينية والمدنية من خلال عرض لأحوال أهالى البلاد المفتوحة قبل الاسلام من اضطهادات ومقارنتها بما نالوه من حريات داخل جماعاتهم الدينية وممارســـة شعائرهم الدينية فى حرية تامة ثم تناولنا بالعرض قضاء الذميين وقوانينهم الخاصـــــة .

والفصل الثالث يتناول وظائف غير المسلمين فى الدولة لاسيما فى الجهاز الادارى الذى أتيح لهم العمل فيه من البداية وموقف الدولة من استخدامهم بالادارة الاسلامية ، ثم وصولهم الى منصـــــب الوزارة .

والفصل الرابع يتناول دور غير المسلمين فى الحياة الاقتصادية والاستفادة من حالة الازدهار الاقتصادى مما ساعد على ظهورهم كتجار وصيارفة وجهابذة مما مهد لهم القيام بدور البنوك فى الوقت الحاضر من تقديم القروض وقبول الودائع .

والفصل الخامس يتناول الأحوال الاجتماعية والثقافية لغير المسلمين فيتناول رعاية الدولة لأهل الذمة واتاحة الفرصة لهم فى الاحتفال بأعيادهم كيفما شاءوا ومشاركة المســـــلمين والدولة فى أحايين كثيرة لهم فى أعيادهم واطـــــلاق الكسوات والأموال وفى الناحية الثقافية تناولنا فيه حرية التعليم وظهور كثير من المبرزين فى مختلف العلوم .

وتذيل هذه الفصول بخاتمة عرض فيها لما انتهينا اليه من نتائج أسفرت عنها الدراسة .

واستقينا المادة المتعلقة بموضوع البحث من مصادر مختلفة سواء من كتب الخراج والأحكام ومن الكتابات التاريخية من كتب الفتوح أو كتب الحوليات والتواريخ الاقليمية الخاصة بأهل الذمة كما سبق أن ذكرنا ، لذلك فهذه المصادر مع اختلافها كل منها يمثل أهمية وخصوصية معينة من حيث المادة التى يشتمل عليها لذلك سوف نتناولها كل على حدة .

وتأتى كتب الخراج فى المقدمة ، لأنها تعالج بشكل مباشر وضعية الأرض فى البلاد المفتوحة ، حقيقة أن الخراج لم يكن قاصرا على أراضى الذميين ولكنه فى البداية وضع ليقرر على هذه الأرض بشكل خاص ومنها كتاب القاضى أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم الذى توفى عام ١٨٢ هـ/٧٩٨ م المسمى كتاب الخراج(١) فمن خلال النصائح التى قدمها أبو يوسف للخليفة الرشيد قدم لنا سجلا رائعا عن كيفية معاملة أهل الذمة ماليا وقدر الجزية فيمن تجب عليهم الجزية وطرائق جبايتها التى يراعى فيها الرفق وكذلك تقدير الخراج ويورد ضمن كتابه بعض عهود الأمان التى أبرمها القادة الفاتحون مع أهالى البلاد المفتوحة .

وكتاب يحيى بن آدم القرشى المتوفى عام ٢٠٣ هـ/٨١٨ م فى كتاب الخراج(٢) يتناول أيضا الجزية والخراج ويذكر أحاديث للرسول عليه الصلاة والسلام توحى بالرفق مع أهل الذمة وكذلك للخليفة عمر بن الخطاب .

---

(١) القاهرة : الطبعة السادسة ١٣٩٧ هـ .
(٢) القاهرة : الطبعة الثانية .

وفيما يتعلق بالأحكام يأتى فى المقدمة الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى توفى عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م فى كتابه الأحكام السلطانية فى الولايات الدينية(٣) ، وفى هذا الكتاب يقدم لنا الاطار النهائى الذى وضع عبر القرون فى كيفية معاملة أهل الذمة من خلال قالب فقهى متكامل يحدد الشروط التى على أساسها يتم عقد الذمة .

أما عن الكتابات التاريخية فمع تنوعها فهى تفيد موضوع البحث الى حد كبير ، فعلى الرغم من أنها تعول على الجانب السياسى لكنها تكشف الغموض عن علاقة الذميين بالدولة سواء فى اشتراكهم فى العمل فى الجهاز الادارى أو أعمال الخراج أو حتى كتابا اختصوا بخدمة الخلفاء .

ويأتى فى مقدمة هذه الكتابات كتب الفتوح ومنها ما كتبه البلاذرى ، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى عام ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م فى كتاب فتوح البلدان(٤) وقد التزم بالاسناد فى رواياته الخاصة بالفتوحات وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه ينقل عن الواقدى المتوفى عام ٢٠٧ هـ/٨٨٢ م والذى يمثل أقدم ما كتب عن المغازى والفتوح ، والبلاذرى يقدم لنا مادة غاية فى الأهمية فهو من خلال عرضه للفتوحات يضمنها عهود الأمان التى أبرمت مع أهالى الشعوب المفتوحة وكيفية تعامل الفاتحين معهم ومقدار الجزية والخراج الذى ربما اختلف من اقليم لآخر حسب الغنى والفقر لهذه الأقاليم .

ثم تأتى كتب الحوليات بعد ذلك فيما كتبه الطبرى ، محمد بن

---

(٣) القاهرة : ١٢٩٨ هـ .
(٤) القاهرة : ١٩٣٢ .

جـــرير الذى توفى عام ٣١٠ هـ/٩٢٢ م فى كتابه تاريخ الأمم والملوك(٥) فهو بأخباره ككتاب حوليات يقدم لنا بعض الأحداث المتعلقة بالذميين ونفس الشىء يقال عن ابن الأثير : محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيبانى المتوفى فى عام ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م فى كتابه الكامل فى التاريخ(٦) الذى يتعرض فى أحايين كثيرة لاخبارهم والى جانب هذه الـــكتابات التى تتناول التاريخ العام للدولة الاسلامية فهناك بعض الكتابات الاقليمية سواء للمغرب أو الأندلس أو مصر . فضلا عن ذلك ، فهناك كتب الجغرافيا التى تعرضت للتوزيع الديموجرافى لأهل الذمة فى الدولة الاسلامية واســـعة الأرجاء ومنها كتاب المقدسى وابن حوقل وابن خرداذبة .

وبجانب هذه المصادر ، فهناك المراجع الحديثة سواء للعرب أو المستشرقين من خلال الكتب التى الفوها أو الدوريات التى نشروها ومنها كتابات الدكاترة حسن أحمد محمود وقاسم عبده قاسم وعطية القوصى كذلك كتب المستشرقين امثال جوايتين وأشتور ومان وفيشيل وغيرهم .

وهذه محاولة متواضعة لالقاء الضوء على ما اتاحته الدولة الاســـلامية من رعاية شاملة وحرية تامة للطوائف الدينية التى شملتها دار الاسلام .

---

(٥) القاهرة : ١٩٧٩ .
(٦) القاهرة : ١٩٨٣ .

تمهيـــد

ضمت الدولة الاسلامية أعدادا من غير المسلمين من اهالى البلاد المفتوحة الذين ظلوا على دينهم وعرفوا فى أول الأمر باسم (الرعية — أو الأعاجم) بمعنى أن العرب رعاتهم(١) لكنهم عرفوا من خلال كتب الفقه الاسلامى باصطلاح « أهل الذمة » والذمة تعنى العهد والأمان والضمان ، كما هى تقرير بتوطين أهل الكتاب فى ديار الاسلام ، وحمايتهم لدخولهم فى عهد المسلمين وأمانهم(٢) .

لذلك يطلق هذا الاسم على من يجوز عقد الذمة معهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس الذين اعتبروا ذمة الى جانب الصابئة (عبدة النجوم) بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى فى أصل معتقداتهم وكان من حقهم أن يقيمـــوا فى بلادهم بناء على معاهدات الأمان أو الصلح أو أنهم خضعوا للعرب بحكم أن بلادهم

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٠٨ .

(٢) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ ، ص ١٤٢ ، ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ١٩٥٦ ، ج ١٥ ، ص ١١١ .

فتحت عنوة(٣) . فحوت معـــــاهدات الأمان عبارات مختلفة بهذا الخصوص منها : (فمن منع ما عليه فلا عهد له ولا ذمة) ، (وان بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة)(٤) .

وقد أشـار القرآن الكريم الى طوائف أهل الذمة وحدد طبيعة معاملتهم وعلاقتهم بالمسلمين من قوله تعالى : ((**ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شىء شهيد**))(٥) . وقال سبحانه : ((**ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصـــــارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**))(٦) .

كما أشـارت أحاديث الرسـول صلى الله عليه وسلم الى غير المسلمين من خلال اصطلاح الذمة ومنها : (**احفظونى فى ذمتى**) وما جاء أيضا على لسان الخلفاء من بعده سنذكره فى حينه . كذلك كتب التاريخ التى حفلت بذكر اخبارهم قد أشـــــارت اليهم بهذا الاصطلاح الذى ظل شـائعا فى الدولة الاسلامية على مر الزمن .

---

(٣) Encyclopedia of Islam, 2ed. Art Dhimma, P. 227

(٤) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، القاهرة ١٩٤١ ، وثيقة رقم ٢٤٣ ، ص ٢٥٥ ، ٣٣٦ ، ص ٢٤٩ .

(٥) سورة الحج : آية ١٧ .

(٦) سورة البقرة : آية ٦٢ .

الفصل الأول :

المنهاج الاسلامى في معاملة غير المسلمين

- موقف القرآن الكريم والسنة النبوية
- الدعوة الى الاسلام
- عهود الامان
- الجزية
- الخراج
- عقد الذمة وشروطه

المنهاج الاسلامى فى معاملة غير المسلمين

موقف القــرآن الـكريم والســنة النبــوية

وقف الاسلام موقفا متســامحا تجاه الأديان الأخرى ، كما تقررت من خلاله القواعد التى على أساسها يعامل غير المسلمين فى دار الاسلام وما يجب على المسلمين اتباعه من تعاليم وما عليهم من واجبات من خلال القرآن الكريم الذى نظم تلك العلاقات .. فشملت كثير من النصــوص القرآنية روح التسامح والعفو قال تعالى : ((**فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين**))(١) وكذلك فى سورة الشورى قال سبحانه :((**فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين**))(٢) . كما يتضح موقف الاسلام منذ البداية فى الدعوة للاسلام فقد حدد وبدقة عدم اجبار الناس على الدخول

(١) سورة المائدة : آية ١٣ .

(٢) آية ٤٠ .

فى الاسلام قال تعالى : ((**لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى**))(٣) ، ويقول سبحانه وتعالى مخاطبا الرسول : ((**ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**))(٤) ، وقال تعالى : ((**فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر**))(٥) .

سار الرسول عليه الصلاة والسلام على هذا النهج ، فقد منع رجلا حاول أن يرغم ولديه على الاسلام ، يذكر المؤرخون(٦) أن رجلا يقال له الحصين من بنى سالم بن عوف كان له ولدان مسيحيان وهو مسلم فسأل الرسول عليه الصلاة والسلام عما كان يجوز له اكراههما على اعتناق الاسلام وهما يرفضان كل دين غير المسيحية فنهاه الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك : كما كانت احدى نساء بنى قريظة وتدعى ريحانة من نصيب الرسول عليه الصلاة والسلام بعد محاربة قومها(٧) ، فعرض عليها الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب ، فقالت : يارسول الله بل تتركنى فى ملكك ، وابت الا اليهودية فقربها الرسول

---

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .

(٤) سورة يونس : آية ٩٩ .

(٥) سورة الغاشية . آية ٢١ — ٢٢ .

(٦) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك : القاهرة ١٩٧٩ ، ج ٢ ، ص ٥٩٢ .

(٧) كان بين يهود بنى قريظة وبين الرسول عليه الصلاة والسلام عهدا فنقضوه وانحازوا الى قريش فى واقعة الخندق فحاصرهم الرسول ولما اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكمه واختار الرسول سعد بن معاذ الأوسى يحكم فيهم فحكم بقتل الرجال وسبى النساء والذرية وتقسيم أموالهم بين المسلمين . انظر ابن هشام السيرة النبوية قدم لها وعلق عليها طه عبد الرءوف ، القاهرة ١٩٧٩ ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

عليه الصلاة والسلام حتى أسلمت بعد ذلك . كما كتب الى معاذ بن جبل وهو باليمن أن لا تفتن يهوديا عن يهوديته(٨) .

كما دعا الاسلام الى اتباع أسلوب اللين والرفق والحوار الهادىء والمجادلة بالحسنى من خلال استخدام العقل والمنطق لاقناع أهل الكتاب بالدخول فى الاسلام قال تعالى : **« ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون »**(٩) .

ويقول سبحانه مخاطبا الرسول : **« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن »**(١٠) ، وفيه أيضا : **« قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون »**(١١) .

الدعوة الى الاسلام :

بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بعد نزول آيات تشريع الجهاد بنشر الدعوة الاسلامية بين القبائل العربية وكانت موجهة فى البداية الى القريشيين الذين ظلوا على وثنيتهم وناصبوا الرسول عليه الصلاة والسلام العداء فعمل على استمالة القبائل المقيمة بين مكة والمدينة وارتبط بأكثرها برابطة الحلف واستطاع عليه الصلاة

---

(٨) نفسه ، ص ٢٥٦ .
(٩) سورة العنكبوت : آية ٤٦ .
(١٠) سورة النحل : آية ١٢٥ .
(١١) سورة آل عمران : آية ٦٤ .

والسلام بعد صراع طويل مع القريشيين ان يعقد صلح الحديبية ثم واجه خطر اليهود فى المدينة وبعدها بدأ يوجه جهوده خارج بلاد الحجاز لينشر الدعوة الاسلامية التى بدأت فى السنة السادسة للهجرة بارسال رسلا من قبله الى قبائل العرب وأمراء النواحى فى شبه الجزيرة العربية وخارجها والملوك الدول المعاصرة له لتعميم الدعوة الاسلامية مؤكدا لما جاء فى القرآن الكريم من مطالبة الناس جميعا بقبول الاسلام قال تعالى : ((**وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون**))(١٢) وفيه أيضا : ((**قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا**))(١٣) . فالاسلام رسالة عالمية لابد أن تبلغ للناس كافة(١٤) .

واتضحت سياسة الاقناع التى اتبعها الرسول عليه الصلاة والسلام من خلال الكتب التى وجهها عليه الصلاة والسلام الى أمراء العرب والملوك المعاصرين يدعوهم للدخول فى الاسلام فكتب الى المنذر بن ساوى أمير البحرين (**فانى احمد الله الذى لا اله الا هو ، اما بعد فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ، ومن ابى فعليه الجزية**(١٥) . وكتب أيضا الى أهل اليمن (**من اسلم من يهودى او نصرانى فانه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فانه لا يفتن وعليه الجزية**)(١٦) .

---

(١٢) سورة سبأ : آية ٢٨ .
(١٣) سورة الأعراف : اية ١٥٨ .
(١٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام : ترجمة حسن ابراهيم وآخرون ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ص ٣٤ — ٣٥ .
(١٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٩١ .
(١٦) نفس المصدر : ص ٨٠ .

كما أرسل الى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل امبراطور بيزنطة كتابا مع حاطب بن ابى بلتعة جاء فيه : **(من محمد رسول الله الى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم القبط ، يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشـــرك به شيئا)(١٧)** ، وتأتى بقية الكتب التى أرسلت الى نجاشى الحبشة وهرقل عظيم الروم وكســـرى عظيم فارس بنفس الصـــيغة السابقة(١٨) وهى توضح السياسة التى اتبعها الرســـول عليه الصلاة والسلام فى الدعوة بتنفيذ ما جاء فى القرآن الكريم من ضرورة نشر الاسلام بالحسنى وعدم اجبار الناس على الدخول فيه كما بينا من قبل . وكانت وصيته لمعاذ حين بعثه الى اليمن قال له : **(يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر)(١٩)** .

كذلك وضع الرسول عليه الصلاة والسلام منذ البداية الخطوط العامة للدعوة الاسلامية وكيفية التعامل مع غير المســـلمين اثناء الحرب عند خروج أمراء الجيش لتأمين حدود بلاد العرب الشمالية وتوطيد سلطان المسلمين بها بما يتفق مع ما جاء فى النص القرآنى فيما يخص القتال فى سبيل الله قال تعالى : **((وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتـــدين))(٢٠)** ، وفيه ايضا : **((وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله))(٢١)** فعندما وقع اختيار الرسول عليه الصلاة والسلام على مولاه زيد بن

---

(١٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، طبعة ١٩٢٠ ، ص ٤٦ .
(١٨) انظر : حميد الله . مجموعة الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٢٦١٢٥ ، ص ٢٦ — ٢٩ .
(١٩) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ١٧٥ .
(٢٠) سورة البقرة : آية ١٩٠ .
(٢١) سورة الأنفال : آية ٦١ .

حارثة فى السنة الثامنة للهجرة خرج على راس جيش عدته ثلاثة آلاف فشيعهم رسول الله الى ثنية الوداع واوصى امراء الجيش بقوله : (اوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعهم الى ثلاث فأيتهن ما أجابوك اليها فأقبل منهم واكفف عنهم ، ادعهم الى الدخول فى الاسلام ، فان فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم .. فان أبوا فادعهم الى اعطاء الجزية ، فان فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم) .

(وان أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن انزلهم على حكمك ، فانك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا .. وستجدون رجالا فى الصوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم وستجدون آخرين على رءوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف ، ولا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضرعا ولا كبيرا فانيا ولا تغرقن نخلا ، ولا تقلعن شجرا(٢٢) ، ولا تهدموا بيتا(٢٣) ، كما تضمنت الوصية التى أوصى بها الرسول عليه الصلاة والسلام أسامه بن زيد فى حملته على أطراف الشام نفس الروح السمحة)(٢٤) .

ومن هذه الوصايا السابقة نتبين ان سياسة الدولة الاسلامية

---

(٢٢) المقصود بذلك أن الشيطان استوطن رءوسهم فجعل له فيها مفاحص كمفاحص الطير انظر : المقريزى ، امتاع الاسماع ، القاهرة ١٩٤١ ، ج ١ ص٣٤٩، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٤١ .

(٢٣) نفس المصدر : ج ١ ، ص ٣٤٤ ، سرور ، قيام الدولة العربية الاسلامية، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٥٦ .

(٢٤) نفس المصدر : ج ٢ ، ص ٥٣٦ — ٥٣٧ ، أوصاه بقوله اغز باسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله — اغزوا ولا تقتلوا وليدا ولا أمرأة .

فى الدعوة للاسلام كانت تقوم على امور ثلاثة الاسلام — الجزية — الحرب ، وهذا الأمر فى حد ذاته لا يؤكد فقط ما سبق أن أسلفناه من عدم اجبار غير المسلمين على الدخول فى الاسلام ولكن أيضا يؤكد مبداى الحرية والاختيار وقد وضحت هذه الأصول للدعوة ايضا عندما كتب الرسول عليه الصلاة والسلام الى اساقفة نجران قال فيه : (انى ادعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد وادعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد فان أبيتم فالجزية فان أبيتم آذنتكم بحرب والسلام)(٢٥) كما أوضحت الوصايا السابقة للرسول عليه الصلاة والسلام سياسة التسامح مع الضعفاء والنهى عن قتل النساء والشيوخ والذرية .

عهود الأمان :

ويظهر تسامح الاسلام فى مواقفه الكريمة مع غير المسلمين فى عهود الأمان التى أعطيت لهم فكانوا يقيمون فى بلادهم بناء على هذه العهود تحت مظلة الاسلام وكان الأمان يشكل القاعدة الاسلامية الأساسية بعد دخول المسلمين البلاد المفتوحة وبمقتضى هذا الأمان اتيح لغير المسلمين بعض الحقوق والحريات وكان عهد الأمان الذى عقده الرسول عليه الصلاة والسلام لأهل نجران هو المثال الذى عقدت على منواله عهود الأمان اللاحقة فقد نص على أن (.. لنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وانفسهم وارضهم وملتهم غائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ولا يغير اسقف ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دية ولا دم جاهلية ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيشا ومن سأل منهم حقا فبينهم للنصف

---

(٢٥) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ، وثيقة ٩٣ ، ص ٨٠ .

غير ظالمين ولا مظلومين ومن اكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ..)(٢٦) .

كذلك وضحت نفس الروح فى بقية عهود الأمان التى كتبها الرسول عليه الصلاة والســـلام ومنها ما عقده مع اهل ايلة ذكر فيها : (هذه آمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبه وأهل ايلة سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام واهل اليمن واهل البحر)(٢٧) .

وثمة نقطة أخرى متعلقة بعهد الأمان وموقف الاســـلام من الناكثين بالعهد من غير المسلمين قال تعالى : « **وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا ائمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون)**(٢٨) . وهذه الآية وان كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم(٢٩) وفيه ايضا (**واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين)**(٣٠) .

وسوف يتضح هذا المنهاج فيما قام به الرسول عليه الصلاة والسلام تجاه يهود المدينة ، فمن الثابت أن الرسول بعد أن استقر فى المدينة وضع نظاما للحياة فيها وتضمن الكتاب او الصحيفة عهد اليهود ، نظمت خلالها العلاقة بين المسلمين واليهود فى المدينة فأمنهم على دينهم وأمرهم على اموالهم ماداموا مع المسلمين ، فسمح لهم ببعض الحقوق مع المسلمين طالما يقفون بجانب المسلمين بأن

---

(٢٦)ابو يوسف : الخراج ، الطبعة السادسة ١٣٩٧ هـ ، ص ٨٧ .
(٢٧) حميد الله ، الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٣١ ، ص ٣٤ .
(٢٨) سورة التوبة : آية ١٢ .
(٢٩) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ١٩٨٠ ، حـ ٢ ، ص ٣٣٩.
(٣٠) سورة الأنفال : آية ٥٨ .

يكونوا معهم ضد اعدائهم ولا أن تجار قريش ولا من ينصرها ، أى أن هذا العهد بقدر اعطاء الحرية الدينية لليهود فانه أيضا يكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق (وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم)(٣١) .

لكن يهود المدينة قد تتابعت خيانتهم ونكثهم بالعهد ، وبدأ يهود بنى قينقاع بعد غزوة بدر يظهرون أحقادهم وتحديهم للرسول وزعموا انه لا يجرؤ على قتالهم فحاصرهم الى ان قبلوا التسليم واكتفى باجلائهم عن المدينة(٣٢) ، كما توترت العلاقة بين يهود بنى النضير وبين الرسول بعد غزوة احد ، اذ حاولوا أن يستفيدوا من هزيمة المسلمين فى احد بالغدر بهم فحاصرهم الرسول عليه الصلاة والسلام وأجلاها أيضا عن المدينة فى العام الرابع للهجرة . وتلا ذلك نكث بنى قريظة للعهد وانحيازهم الى قريش فى واقعة الخندق وأصبح وجودهم فى المدينة يشكل خطرا على المسلمين ، حتى بعد رجوع القريشيين الى مكة بعد غزوة الخندق بدأ يهود بنى قريظة مع القريشيين فى تأليب العرب على المسلمين فضلا عن تعاونها لهم أثناء الحصار فأخرجها هذا عن العهد المدون فى الصحيفة التى حوت امان وعهد اليهود ، لذلك نجد أن الرسول قد حاصرها فى آطامها حتى طلبت التسليم وقبول تحكيم سعد بن معاذ الأوسى الذى حكم بقتل الرجال وسبى النساء والذرية(٣٣) .

وعلى ذلك يمكن أن نتبين أن السبب الرئيسى فى حرب اليهود يرجع الى اشتطاطهم فى معاملة مسلمى المدينة ونكثهم للعهد وخيانتهم وتحديهم السافر الذى بلغ منتهاه مما دفع الرسول عليه

---

(٣١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ١١٩ — ١٢٣ .

(٣٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٧ .

(٣٣) ابن هشام : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

الصلاة والسلام الى محاربتهم لأن خطرهم قد هدد الدعوة الاسلامية التى كانت لاتزال فى مهدها ومبلغ الخطورة فى أن هؤلاء اليهود كانوا يشاركون المسلمين سكنى المدينة ويظاهرون عدوهم . ومع ذلك لنا أن نؤكد أن هذه الحروب التى دفع اليها الرسول عليه الصلاة والسلام دفعا تجاه اليهود يظهر فيها أيضا التسامح فهو لم ينكل بهم مع بداية خيانتهم ونكثهم بالعهد بل اكتفى فقط باجلائهم وخروجهم بما يحملون وتكرر الموقف أكثر من مرة مما دفع الرسول عليه الصلاة والسلام الى أن يشتد فى رفق لأن الذين خرجوا خارج المدينة تحالفوا مع قريش واصبحوا يشكلون خطرا يحدق بالدولة الناشئة التى كانت دائما حريصة على أن يسودها السلام ، ومع ما قام به اليهود من نقض للعهود فانهم كانوا معترفين لوفاء الرسول عليه الصلاة والسلام للعهد(٣٤) .

هذه هى الأصول التى وضعها الرسول عليه الصلاة والسلام والمستمدة من القرآن الكريم فى الدعوة للاسلام وعقد عهود الأمان مع غير المسلمين والتى ظلت المنهاج القويم الذى سار عليه خلفاء الرسول والقادة الفاتحون الذين تحملوا عبء نشر الدعوة الاسلامية شـــــرقا وغربا .

واصلت الدولة الاسلامية بعد الرسول عليه الصلاة والسلام التوسع خارج حدود الجزيرة العربية خلال عصر الخلفاء الراشدين استمرارا لما بداه الرسول عليه الصلاة والسلام من دعوة الملوك المعاصرين له فى بداية العام السادس وما تلاه من غزوات متتالية فى مؤتة وتبوك ، لذلك بدأ الخليفة أبو بكر الصديق بعد انتهائه من حروب الردة الى توجيـــه الجيـــوش الى الدولتين اللتين كانتا تحكمان العالم آنذاك فخرجت الجيوش الاسلامية متوغلة فى جبهتى

---

(٣٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

الفرس والروم واستطاع خالد بن الوليد أن يفتح الأراضى الواقعة غربى الفرات وصالح أهل الحيرة(٣٥) .

واستؤنفت الفتوحات فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فى بلاد الشام التى كانت قد بدأت فى خلافة أبى بكر ففتحت سورية عام ١٣ هـ/٦٣٤ م . ثم فتحت فلسطين عام ١٥ هـ/٦٣٦ م وبعدها تم فتح العراق أو ما عرف بالسواد ، وخرجت الجيوش الاسلامية شرقا وغربا واستطاع عمرو بن العاص أن يفتح مصر عام ٢١ هـ/ ٦٤٢ م واتجه ناحية الغرب ففتح برقة وطرابلس اذ شملت الفترة التى حكم فيها عمر بن الخطاب أغلب الفتوحات فى عصر الراشدين .

كما أسهمت الدولة الأموية التى قامت عام ٤١ هـ/٦٦٢ م بدور كبير فى استئناف الفتوحات ففى ايران تمكن الأمويون من تثبيت الفتوحات التى تمت خلال عصر الراشدين كما تتابعت الجهود التى قام بها الخلفاء الأمويون والتى وصلت ذروتها فى عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ/٧٠٥ — ٧١٥ م) فأنجزت فى عهده فتوحات كثيرة فى المناطق الطرفية والتى بدأت منذ وقت مبكر منذ أيام الراشدين واستمرت مع الأمويين ولكن هذه الجهود لم تكتمل الا فى عصره مجاست فتوحات اقليم ما وراء النهر وبلاد السند . كذلك بلاد المغرب الذى استمر فتحها فترة طويلة وخرجت الجيوش الاسلامية وفتحت الأندلس وكان يقوم بهذا الدور قادة أكفاء لهم قدرات فائقة أمثال قتيبة بن مسلم فى اقليم ما وراء النهر ومحمد بن القاسم فى السند وموسى بن نصير فى بلاد المغرب والأندلس.

---

(٣٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٦ .

وســــــار خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام على منهاجه القويم ، فى عدم الاكراه فى الدين فجاءت امرأة الى الخليفة عمر بن الخطاب فى حاجة وكانت مشركة فدعاها للاسلام فأبت ، فقضى لها حاجتها ، لكنه خشى أن يكون فى تصرفه هذا ما ينطوى على اكراهها للدخول فى الاسلام ، فاستغفر الله عما فعل وقال : (اللهم انى أرشدت ولم أكره)(٣٦) .

وقد سار القادة الفاتحون فى دعوتهم للاسلام على نفس المنهاج فكتب خالد بن الوليد الى هرمز صاحب ثغر فارس ما نصه : (اما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرر بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة)(٣٧) كذلك ما قام به سعد بن أبى وقاص فدعا الدهاقين الى الاسلام والرجوع أو الجزاء لهم والذمة(٣٨) .

واتضحت وصايا الرسول عليه الصلاة والسلام فى التسامح مع الضعفاء والنهى عن قتل النساء والشـــــيوخ والذرية فى تلك السياسة التى سار عليها المسلمون ، ففى عهد الخليفة عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبى وقاص وغيره من أمراء الجيش يوصيهم بتقوى الله وأن تنحى منازل المسلمين عن قرى أهل الصلح والذمة فقال : (لا يدخلها من أصحابك الا من تثق بدينه ولا يرزأ احد من أهلها شيئا فانهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء كما ابتلوا بالصبر عليها ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح)(٣٩) .

---

(٣٦) على عبد الواحد وافى : بحوث فى الاسلام والمجتمع ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٧٣ .

(٣٧) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٩٣ ، ص ٨٠ .

(٣٨) نفسه : وثيقة رقم ٢٨٩ ، ص ٢١٧ .

(٣٩) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٤ ، ص ٥ .

كما حوت عهود الأمان التى عقدها الفاتحون نفس الروح السابقة ، وسارت كلها فى اتجاه واحد ، فنجد مثلا أن العهود التى أبرمت مع الايرانيين قد تضمنت جميعها منح أهل الذمة الحرية الدينية ، كما أن المجوس عدوا من أهل الذمة وكانوا على قدم المســـــاواة مع الديانات الأخرى(٤٠) ، ونلمس أيضا تلك الروح السمحة فى العهود التى أبرمت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقد صيغت فى اطار واحد بنفس الجزئيات وان تغيرت الصيغة قليلا ، ففى كثير من المدن الايرانية أعطيت فيها عهود الأمان فى بعض الأحيان بشكل اجمالى ، بمعنى اعطاء الأمان على الأنفس والأموال وسور المدينة مع أهل قومس وجرجان وأذربيجان وطفليس وغيرها .

فنصت معاهدة خالد بن الوليد لبلاد عانات(٤١) على : (أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى أن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم) كذلك معاهدة حذيفة بن اليمان مع أهل ماه دينار(٤٢) على (اعطاء الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرواحهم ولا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة) .

كما سارت معاهدات الصلح فى اقليم ما وراء النهر فى نفس الاتجاه ، فقد أتيح لأهل الصامغان ودراباز على (أن لا يقتلوا ولا يسبوا ولا يمنعوا طريقا يسلكونه)(٤٣) ، كما عقدت عهود الصلح بين قتيبة بن مسلم وكثير من مدن اقليم ما وراء النهر مثل كش ونسف وان لم تذكر المصادر صيغة هذه العقود(٤٤) . كذلك وجدنا

---

(٤٠) حسن محمود : الاسلام فى آسيا الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٢ .
(٤١) حميد الله : المصدر السابق ، وثيقة رقم ٢٩٧ ، ص ٢٢٥ .
(٤٢) نفسه ، وثيقة رقم ٣٣٢ ، ص ٢٤٦ .
(٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٢٩ .
(٤٤) نفس المصدر : ص ٤٠ .

أن العرب فى اقليم ما وراء النهر قد استطاعوا من خلال معاملتهم الطيبة مع أهالى البلاد أن يعقدوا صداقات مع الدهاقين(٤٥) ، حتى نشأ ود متبادل بين الفريقين خلال الغارات الثغرية المتلاحقة ونتج عن ذلك اعجاب من جانب هؤلاء الوطنيين بسمات العرب وسماحتهم وكريم معاملتهم ، وهناك عدة أسماء بقيت سيرتها فى ذاكرة الناس فترة ليست بالقصيرة أمثال ثابت بن قتيبة أحد رجال عبد الله بن خازم الذى أثار احترام الناس وظلوا يذكرونه وقتا طويلا(٤٦) .

أما عن فتح السند ، فقد استطاع محمد بن القاسم أيام الدولة الأموية أن يرتفع بالبوذيين الى مصاف أهل الكتاب ، كما ارتفعوا من قبل بالزرادشتية فى ايران ، ويعنى ذلك أن ينضـــم هؤلاء البوذيون الى بقية المعاهدين ويتمتعوا بكافة الحريات السابقة ، واستطاع محمد بن القاسم أن يعقد الصلح مع عدة مدن قد طلبت منه الصلح مثل البيرون وأهل ساوندى وبشمند ، كذلك اشتمل صلحه مع الرور بعد أن فتحها صلحا على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدهم والتى هى بيوت عبادة البوذية ككنائس النصارى وبيع اليهود وبيوت نيران المجوس(٤٧) وهذا يؤكد أن معابدهم قد ظفرت بنفس الحرية التى أتيحت لأهل الكتاب فى ممارسة شـــعائرهم وحماية بيوت عباداتهم .

أما عهود الأمان التى أبرمت مع البلاد التى كانت خاضعة للبيزنطيين فى الشام ومصر فقد سارت فى نفس الاتجاه ، ففى

---

(٤٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص ٣١٥ .

(٤٦) حسن محمود : الاسلام فى آسيا الوسطى ، ص ١٢٤ .

(٤٧) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ص ٤٢٦ — ٤٢٧ .

بلاد الشام أعطى خالد بن الوليد أمانا لأهل دمشق(٤٨) على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا تسكن شىء من دورهم كما نجد فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس عام ١٧ هـ/٦٣٨ م(٤٩) نفس الامتيازات التى تتيح لأهل الذمة الحرية الدينية فضلا عن انها نصت على أن (لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم) كذلك شمل أمان أهل الرقة نفس الحقوق(٥٠) ٠

وفى مصر استطاع عمرو بن العاص أن يعقد مع من سلموا له حصن بابليون صلحا شرط لهم فيه(أن لا تباع نساؤهم وأبناؤهم ولا يسبون وأن تقر أموالهم وكنوزهم فى أيديهم)(٥١) ٠ وفى رواية اخرى أن عمرا كتب لهم (انهم آمنون على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم لا يباع احد منهم)(٥٢) أما صلح الاسكندرية فقد حوى أيضا : (أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس القبط ولا يتدخلون فى أمورهم اى تدخل ويتاح لليهود الاقامة فى الاسكندرية) ، بهذا عومل الاقباط معاملة طيبة منذ البداية فعلى الرغم من اختلاف المؤرخين حول وضعية مصر هل فتحت صلحا أم عنوة ، فقد طبق العرب شروط الصلح التى ابرمت مع المصريين بأمر الخليفة عمر بن الخطاب بأن يصالح أهل مصر على أساس أن بلادهم فتحت صلحا بما فى

---

(٤٨) مجموعة الوثائق السياسية : وثيقة رقم ٣٥٢ ، ص ٢٦٤ ٠
(٤٩) نفسه : صفحات ا وثيقة رقم ٣٥٧ ، صفحات ٢٦٨ — ٢٦٩ ٠
(٥٠) نفسه : وثيقة رقم ٣٥٨ ، وثيقة رقم ٣٥٩ ، ص ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ٠
(٥١) نفسه : وثيقة رقم ٣٦٥ ، ص ٢٧٦ ٠
(٥٢) نفســـه ٠

ذلك الاسكندرية وبعض القرى القريبة منها التى نقضت الصلح الأول(٥٣) .

وحرص عمرو بن العاص فى أول خطبة القاها على الجند الذين دعاهم الى الذهاب الى الريف فى مصر على أن يوصيهم بحسن معاملة الأقباط قال : (واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا)(٥٤) وهناك عدة أحاديث نقلت عن الرسول عليه الصلاة والسلام توصى بقبط مصر منها (ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة فعفوا أيديكم وفروجكم وغضوا أبصاركم)(٥٥) .

لهذا قام هؤلاء القادة الفاتحون بابرام هذه العهود مع غير المسلمين ولم يكن هذا الأمر وقفا عليهم ، وباعتبار أن الأمان بمثل القاعدة الاسلامية الأساسية فى البلاد التى افتتحها المسلمون فكان من الممكن أن يقوم بهذا الأمر أدناهم وكل جندى يملك حق اعطاء الأمان لغير المسلمين وذلك يكون ملزما للجماعات وعليها الوفاء ويرجع ذلك الى الخليفة عمر بن الخطاب الذى وسع هذه القاعدة فكتب الى سعد بن أبى وقاص : (فان لاعب أحد منكم أحدا من العجم بأمان باشارة أو بلسان كان لا يدرى الأعجمى ما كلمه به وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك مجرى الأمان)(٥٦) ، بذلك يكون أمر عمر بامضاء الأمان حتى ولو كان باشارة عابرة ويأمره بالوفاء ،

---

(٥٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٨ .

(٥٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٢٩٩ هـ ، جـ ١ ، ص ١٢ .

(٥٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٣١٢ اذ كانت هاجر زوج ابراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل ، كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة والسلام من أهل مصر .

(٥٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ ، ص ٤٩٢ .

يشكل اهمية كبيرة فى اتاحة الفرصة لأهالى البلاد المفتوحة فى ابرام معاهدات الصلح .

واذا كانت النصوص تعوزنا بالنسبة لبلاد المغرب ، فلم توجد مثل هذه العهود ، لكننا نجد عهودا خاصة بفتح بلاد الأندلس التى تم فتحها فى العصر الأموى ، وان ضاعت معظم هذه المعاهدات التى عقدها المسلمون مع ما يفتحوه من نواحى ، فقد بقى النص الكامل لمعـــاهدة عبد العزيز بن موسى مع تدميروس حاكم تدمير فضلا عن قطعة هامة من عهد موسى بن نصير لأهل ماردة أوردها الرازى فى القطعة الباقية من تاريخه فى ترجمتها الاســــبانية ، نصها (فذهبوا « يريد أهل ماردة » اليه وقالوا لهم يتركون لهم ما كان لمن مات ومن جرح « فى القتال بيننا وبينهم » وممتلكات الكنائس وما فيها وكذلك ما تحويه من الأحجار الكريمة وغيرها من الأشياء) .. (ولم يمس من أقام فى البلد من النصارى بأذى وأما من أراد ترك البلد فهم يتركوه يمضى دون أذى ...)(٥٧) .

أما الأمان الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى لصاحب تدمير الذى أورده لنا الضبى ينص على : (أن لا ينزع عنه ملكه ولا أحدا من النصارى من أملاكه وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساءهم ولا يكرهون على دينهم ولا تحترق كنائسهم وان اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن)(٥٨) .

وفى ضوء العهود السابقة التى ذكرت خلال عصر الراشدين وكذلك عصر الأمويين ، فقد تأكد لنا أنها كانت تقوم على أساس المعاملة المتسامحة مع أهالى الأديان الأخرى واتاحة كافة الحريات

---

(٥٧) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤٢ .
(٥٨) بغية الملتمس فى تاريخ علماء الأندلس : مدريد ١٨٨٤ ، ص ٢٥٩ .

والحقوق فأعطيت لهم الحرية الدينية فى ممارسة شعائرهم وطقوسهم كذلك نالوا الحرية المدنية من خلال ما أتاحه لهم المسلمون من حماية وأمان على ارواحهم وأموالهم وانفسهم وما الى ذلك مما يجعلهم يعيشون كيفما شاءوا .

كما انه لم يكتف المسلمون بهذه العهود التى تبرم مع غير المسلمين مكفولة بهذه الحريات السابقة ، فوجدنا الخليفة عمر بن الخطاب حريصا على أن يلحق هذه العهود بوصايا من قبله موجهة الى كافة القادة والولاة بأن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة وأن يوفى لهم بعهودهم ولا يكلفوا فوق طاقاتهم(٥٩) وهذه الروح التى نصت عليها تلك العهود لم تكن مجرد اطار نظرى وضع للمعاهدين ، لكنه طبق عمليا فى كل البلاد المفتوحة . فيذكر أحد الدارسين(٦٠) أن سياسة التسامح الدينى استمرت وقتا طويلا فى ايران مع الأمويين ، كما بقيت عقود الصلح دون أن تتغير وسوف نوضح ذلك فى ايران وفى غيرها من البلاد المفتوحة من خلال فصول الدراسة لتبين الى أى حد طبق العرب هذه العهود .

أما عن موقف العرب بعد الرسول عليه الصلاة والسلام من أهالى البلاد المفتوحة وحرصهم على الوفاء بالعهد وكذلك موقفهم من الذين نكثوا العهد فنجد من الدلائل التى تؤكد حرص الخلفاء الراشدين على الوفاء بالعهد ، فبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام جاء أهل نجران الى الخليفة أبى بكر الصديق فكتب لهم عهدا التزم خلاله بما جاء فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام(٦١)

---

(٥٩) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٥٢ .

(٦٠) حسن محمود : الاسلام فى آسيا الوسطى ، ص ٣٣ .

(٦١) ابو يوسف : المصدر السابق ، ص ص ٧٩ — ٨٠ .

وبعد وفاته كتب لهم أيضا عمر كتابا أمنهم فيه على أنفسهم وفاء بعهد رسول الله وقبل وفاته قال : (أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم(٦٢) .

كما حافظ الخليفة الثالث عثمان بن عفان على الوفاء بالعهد فجدد لأهل نجران عهدهم مخاطبا الوليد بن عقبة عامله على العراق جاء فيه : (وانى وصيت لهم بكل أرضهم التى تصدق عليهم عمر عقبى مكان أرضهم باليمن ، فاستوص بهم خيرا فانهم أقوام لهم ذمة ، وكانت بينى وبينهم معرفة . وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فأوفهم ما فيها ، واذا قرأت صحيفتهم فارددها عليهم(٦٣) .

كما أتوا الى على بن أبى طالب فكتب لهم كتابا ذكر فيه : (انكم أتيتمونى بكتاب من نبى الله صلى الله عليه وسلم فيه شرط لكم على أنفسكم وأموالكم وانى وصيت لكم بما كتب لكم محمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فمن أتى عليهم من المسلمين فليف لهم ولا يضاموا ولا يظلموا ولا ينتقض حق من حقوقهم)(٦٤) كما شملت عهود الأمان التى أبرمت مع البلاد المفتوحة شرط الالتزام بالوفاء بالعهد(٦٥) .

لم نسمع عن نقض المسلمين للعهود التى أبرموها ، لأنها ملزمة لمن عقدها ولا يجوز لوال يأتى بعدهم أن يغيرها(٦٦) كما أوضحت

---

(٦٢) نفسه : ص ١٣٦ .
(٦٣) أبو يوسف : الخراج ، ٨٠ .
(٦٤) نفسه : ص ص ٨٠ — ٨١ .
(٦٥) مجموعة الوثائق السياسية : وثيقة رقم ٣٣٤ ، ص ٢٤٨ .
(٦٦) الماوردى : الأحكام السلطانية . ص ١٤٤ .

ظروف عقد الأمان مع أهل تدمير بالأندلس ، حرص المسلمين على الوفاء بالعهد حتى بعد أن خدعوا من قبل تدمير ، فيذكر المؤرخون(٦٧) أن تدمير حينما شعر بقلة رجاله وخطورة المسلمين أمر النساء بنشر شعورهن والوقوف مع القلة الباقية من رجاله على أسوار حصنه وفي أيديهن الرماح مما جعل المسلمين يعتقدون أن حامية المدينة كبيرة العدد فقبلوا مبدأ التفاوض ونزل اليهم تدمير بنفسه على هيئة رسول وأخذ يفاوض عبد العزيز بن موسى واستطاع أن يعقد معه الصلح الذى ذكرناه . وبعد اتمام الصلح كشف تدمير عن شخصيته فلم يرجع المسلمون عما عاهدوا عليه .

وفيما يخص نقض العهود من قبل المعاهدين ، فأول ما يلاحظ فى هذا الصدد موقف النجرانيين ونقضهم للصلح الذى عقده معهم الرسول واشترط عليهم فيه أن يبقوا فى مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ، فجاء أبو بكر وجدد لهم الصلح على ذلك فلما استخلف عمر أصابوا الربا وكانوا قد كثروا وبلغوا أربعين الفا فتحاسدوا فيما بينهم فخافهم على الاسلام فأجلاهم من نجران اليمن الى نجران العراق(٦٨) وهذا الاجلاء لا يعد عقابا عما قام به أهل نجران بقدر رغبة عمر بن الخطاب فى تنفيذ وصية الرسول عليه الصلاة والسلام وهى : لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان ، ولذلك وجدنا الفقهاء المتأخرين يضعوا شروطا لسكنى الحجاز ومنها أن لا يستوطنه مشرك ولا ذمى ولا معاهد(٦٩) ولذلك نقل عمر الى الشام والعراق يهود خيبر ومسيحى دومة الجندل الى جانب نصارى نجران(٧٠) .

---

(٦٧) اخبار مجموعة : فتح الأندلس ، مدريد ١٨٦٧ ، ص ١٣ .
(٦٨) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٧٧ .
(٦٩) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(٧٠) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

وثمة عامل آخر يؤكد أن اجلاءهم لم يكن عقابا لهم ، وهو أن النجرانيين أتوا عمر بن الخطاب يسألونه اجلاءهم فاستحب هذا الجلاء(٧١) كما أنه حافظ على عهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وأبى بكر معهم ونقف من خلال كتابه لهم على حقيقة هامة وهى استمرار سياسة التسامح . فكتب لهم : (من سار منهم امن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه .. فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فانهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا بعد أن يقدموا ولا يكلفوا الا من منعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم(٧٢) كما حرص عمر أن يعوض أهل نجران فاشترى بيوتهم وعقاراتهم واقطعهم النجرانية عند الكوفة(٧٣) .

وهناك أمثلة كثيرة لما قام به المعاهدون من نقض الصلح لفترات متتابعة فأهل طبرستان بعد الصلح كانوا يؤدون مرة ويمنعون من أدائه مرة أخرى فيتحاربون ويسالمون وجرى ذلك فى أيام مروان بن محمد فغدروا ونقضوا ومع قيام الدولة العباسية أرسل أبو العباس السفاح عامله اليهم فصالحوه ثم عادوا ونقضوا وغدروا وقتلوا المسلمين فى خلافة المنصور(٤) كذلك أهل رامهرمز الذين صولحوا ثم نقضوا العهد ثم غدروا(٧٥) وهناك أمثلة عديدة ذكرها صاحب فتوح البلدان يبين فيها نقض بعض المعاهدين لعهودهم .

---

(٧١) نفسه : ص ٧٨ .
(٧٢) أبو يوسف : الخراج ، ص ص ٧٩ — ٨٠ .
(٧٣) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٧٨ .
(٧٤) نفسه ، ص ٣٣٣ .

الجـــــــزية :

وبنفس الروح حوت عهود الأمان ايضا بعض الواجبات على أهل الذمة اتسمت بالتسامح وكانت الجزية هى الشرط الذى وضع على أهل الذمة مقابل بقائهم فى الدولة الاسلامية لقاء حماية المسلمبن لهم استنادا على ما نص عليه القرآن الكريم قال تعالى : ((**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**))(٧٦) فثبتت بهذه الآية الكريمة تشريع الجزية على اهل الذمة التى تعنى فى اللغة الجزاء والقضاء(٧٧) .

فأهل الكتاب من يهود ونصارى وان كانوا معترفين بأن الله سبحانه وتعالى واحد ، فقد كفروا بكتاب الله تعالى وهو القرآن ورسوله محمد ، ولذلك لم يبق لهم ايمان لأن تصديق الرسل ايمان بالمرسل ولذلك تجرى عليهم الجزية ليقروا بها فى دار الاســــــلام للكف عنهم وحمايتهم(٧٨) ما خلا نصارى تغلب فقد أسقطت الجزية عن رءوسهم وضوعفت عليهم الصدقة بحكم قربهم من العدو حتى لا يظاهروا على المسلمين فصالحهم عمر بن الخطاب على أن لا يغمسوا أحدا من أولادهم فى النصرانية ويضاعف عليهم الصدقة(٧٩) .

كما يجرى المجوس مجرى أهل الكتاب فى أخذ الجزية وان حرم أكل لحومهم ونكاح نسائهم فقد أخذها الرسول عليه الصـــــلاة

---

(٧٥) نفسه : ص ٣٧٢ .
(٧٦) سورة التوبة آية ٢٩
(٧٧) ابن منظور : لسان العرب ، ح ١٨ ، مادة جزية .
(٧٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٣ .
(٧٩) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٢٩ — ١٣٠ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٨٦ .

والسلام من مجوس هجر وتبعه الخليفة عمر بن الخطاب بعد ذلك واخذها من اهل السواد ، وذكر عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله فى المجوس : (**سنوا بهم سنة اهل الكتاب**)(٨٠) لذا وجدنا عهود الأمان التى كتبها القادة الفاتحون تسوى بين المجوس واهل الكتاب ممثلة فيما كتبه حبيب بن مسلمة الأنصارى لنصارى اهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم أمنهم فيه على كل ما يخصهم من كنائس وبيع(٨١) .

وحظى أهل الذمة بحماية المسلمين واعفوا من الخدمة العسكرية مقابل تأدية الجزية وتعهد المسلمون بالدفاع عنهم وحمايتهم ونلاحظ أصداء ذلك فى معاهدات الأمان ، ففى الكتاب الذى صالح به خالد ابن الوليد أهل الحيرة نص على : (عاهدهم على تسعين ومائة الف درهم وعلى الذمة . فان لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم)(٨٢) وكذلك معاهدته لصلوبا بن نسطونا وأهله : (انى عاهدتكم على الجزية والمنعة فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم)(٨٣) ويفهم ذلك من تفسير أبى يوسف(٨٤) لشرط الجزية التى ترتبط بالصلح على انها مقابل حقن دمائهم وعلى أن يقاتل المسلمون من ناوأهم من عدوهم والدفاع والزود عنهم .

والواقع ان هذا الاتجاه فى عهود الأمان لم يلتزم بفترة زمنية معينة أو اختص بها اقليم بعينه ، حتى يمكن أن يقال ان عهود الأمان المبكرة كان لابد وأن تحوى مثل هذا الشرط على الفاتحين حيث كانت

---

(٨٠) نفسه ، صفحات ١٣٩ — ١٤٠ .
(٨١) مجموعة الوثائق السياسية : وثيقة رقم ٣٤٦ ، ص ٢٥٨ .
(٨٢) نفسه : وثيقة رقم : ٢٩ ص ٢١٨ .
(٨٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٤ ، ص ١٦ .
(٨٤) الخراج : ص ١٣٣ .

الحمية الدينية فى ذروتها أو اقليم معين خص بامتيازات معينة ولكن من الثابت أن هذا الشرط شمل معظم العهود ، كما نص كتاب الأمان لأهل دبيل فى أرمينيا (فأنتم آمنون وعلينا لهم الوفاء بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية)(٨٥) .

ولم يقف الأمر عند حد المنعة مقابل دفع الجزية ، بل يتعداه الى شروط فرضها المسلمون على أنفسهم بعدم الاغارة والدخول فى أرض المعاهدين الا باذن(٨٦) ومما يؤكد ذلك أن العرب فى بعض الأحيان عفوا عن أخذ الجزية من أهل الذمة الذين تعهدوا للمسلمين بأن يقوموا بواجب الدفاع الى جانبهم . وتفصيل ذلك أنه عندما تقدم المسلمون الى شمال سورية فطلب منهم أهل الجرجومة الصلح على أن يكونوا أعوانا وعيونا لهم وأن لا يؤخذوا بالجــزية فقبل منهم ذلك(٨٧) وكذا عندما تقدم المسلمون ناحية قزوين عرض عامل الفرس (شهربراز) على عبد الرحمن بن ربيعة الصلح على أن لا يؤدوا الجزية قائلا : ويدى مع أيديكم وجزيتنا اليكم والنصر والقيام بما تحبون)(٨٨) .

وعندما شغل خالد بن الوليد بدفع هجوم هرقل ، رد على أهل حمص ما كان قد أخذ منهم وقال :) وقد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص لهم : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم) ، ثم انضموا الى المسلمين وساعدوهم ضد الروم(٨٩) .

---

(٨٥) مجموعة الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٣٤٦ ص ٢٥٨ ، وثيقة رقم ٣٣٨ ، ص ٢٥١ .

(٨٦)نفسه : معاهدة أهل طبرستان وجيجيلان ، وثيقة رقم ٣٣٨ ، ص ٢٥١ .

(٨٧) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٦٤ .

(٨٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .

(٨٩) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

نخلص من ذلك الى ان فرض الجزية على اهل الذمة لا يعد عقابا لامتناعهم عن الدخول فى الاسلام ولكنها كانت مقابل الحماية لهم وتأمينهم فى دار الاسلام كما سبق أن ذكرنا ، فاذا كان المسلم يتحمل كثيرا من الاعباء باعتباره دافعا للزكاة ويؤدى الخدمةالعسكرية للزود عن الاسلام ، فلا أقل من فرض الجزية على الذمى ، لذلك فهناك ارتباط بين المنعة والجزية حتى يتعادل الفريقان فى تحمل المسـئولية باعتبارهما رعايا لدولة واحدة ، كما تعادلا فى التمتع بالحقوق وتساويا بالتمتع بالمرافق العامة للدولة(٩٠) .

ولم تكن الجزية ضريبة مستحدثة فى الاسلام ، ففرضها الروم من قبل على كل شخص من الرابعة عشرة الى الستين وكانوا ملزمين بها ووصلت الى عشرين درهما فى القرن الثانى الميلادى ، ولم يعف منها فى مصر سوى .واطنى الاسكندرية والروم المقيمين في مصر وأبناء الجند الاغريق وعدد من البطالمة فى كل معبد ، معنى ذلك ان الاقباط هم الذين تحملوا عبء دفعها الى جانب اليهود(٩٦) ، كما كان يفرض ملوك الفرس ضريبة الراس وكانت واجبة على كل رجل من سن العشرين الى الخمسين ، وأعفى من دون أو فوق ذلك ، وأعفى منها طبقات معينة مثل أهل البيوتات والعظماء والمقـاتلة والهرابذة والكتاب ومن كان فى خدمة الملك مثل الأشراف والوجهاء ورجال الجيش ورجال الدين وموظفى الدواوين وحاشـية الملك وخاصته كطبقات صاحبة امتيازات(٩٢) .

---

(٩٠)سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٨ .

(٩١) الريس : الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية : القاهرة ، ١٩٨٥ ، صفحات ٥٠ — ٥١ .

(٩٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك : جـ ٢ ، ص ١١٣ ، نفس المرجع ، صفحات ٧٦ — ٧٧ .

وبمقارنة ذلك بما حدث فى دار الاسلام ، نجد أن هناك اختلافا كبيرا ، فلم تعف من الجزية طبقات معينة لها مصالح وثيقة بالدولة وانما كانت الاعفاءات فى دار الاسلام على اساس عدم القدرة ، فكانت الجزية لا تجب الا على الرجال العقلاء ولا تجب على صبى او امراة او مجنون او خنثى مشكل (حتى يزول اشكاله وبان رجلا أخذت منه) ، ولا تؤخذ الجزية من غير القادرين على القتال كالشيخ الكبير الذى لا يستطيع العمل ، وليس من أهل القتال ، ولاتؤخذ من المسكين الذى يتصدق عليه ، ولا من اعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد ، كذلك الرهبان فى الأديرة واهل الصوامع اذ كانوا يعيشون على صدقات الموسرين ، لكن هذه الاعفاءات كانت مشروطة بعدم القدرة على الوفاء بالجزية مع هذه الحالات السابقة ، أما اذا كان هؤلاء اصحاب مال ويسار ، أخذت منهم الجزية(٩٣) .

كما راعت الدولة الاسلامية تغير الأحوال من غنى الى فقر ، وكذلك تسقط عمن اسلم قبل تمام السنة ، وتسقط عن الذمى المتوفى فلا تؤخذ من ورثته لأنهم غير ضامنين له ولا تؤخذ من تركته لأن ذلك ليس دين عليه على رأى ابى حنيفة(٩٤) ، الذى اسقطها باسلامه او موته ، اما الشافعى فقد ذكر أن الذمى اذا مات اثناء الحول او بعده لم تسقط عنه الجزية الا انه فى الحالة الأولى تؤخذ من تركته بقدر ما مضى من السنة(٩٥) .

واختلف الفقهاء فى قدر الجزية ، اذ أن مقدارها لم يكن ثابتا او محددا ، فقد اختلفت حسب الزمان والمكان وارتبطت بمقدرة الفرد

---

(٩٣) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٣٢ .

(٩٤) نفســـه .

(٩٥) الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ١٤٥ .

ما لم يحدد مقدارها فى عهد الأمان بين المسلمين وأهل الذمة(٩٦) فوجدنا فى عهود الأمان التى كتبها الرسول عليه الصلاة والسلام قد كانت الجزية دينارا على كل حالم(٩٧) وكان هذا هو تقدير أخذ به فيما بعد مع اتساع الدولة الاسلامية . كما أنه من الملاحظ أن السـمة الغالبة على عهود الأمان التى أبرمت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب أنها قد حوت فى الغالب لفظة (على قدر الطاقة) وسبب ذلك ان الدولة الاسلامية اتسعت فى عهده وضمت بين جنباتها أقاليم متفاوتة بين الفقر والغنى ولنفس السبب وضع على أهل الشام أكثر من أهل اليمن(٩٨) ، وكانت عهود الأمان الخاصة بايران يغلب عليها عبارة (على قدر الطاقة)(٩٩) . أما بلاد الشام فكانت مقدرة بدينار على كل حالم(١٠٠) كما فرض عمرو بن العاص فى أول الأمر ثم وضعها عمر بن الخطاب على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق (الفضة) أربعين درهما وجعلهم طبقات لغنى الغنى واقلال المقل ولوسط المتوسط(١٠١) وعلى أهل مصر على كل حالم دينارين الا أن يكون فقيرا وعلى أهل برقة دينارا ، أما أهل زويلة ما رأى أنهم يطيقونه(١٠٢) .

---

(٩٦) نفسه : ص ١٤٤ .

(٩٧) انظر يحيى بن آدم ، الخراج ، الطبعة الثانية ص.ص ٧٠ — ٧١ ، البلاذرى صفحات ٧٠ — ٧٢ مصالحة الرسول عليه الصلاة والسلام مع أهل تبالة وجرش وايلة واليمن .

(٩٨) نفسه ، ص ٨٤ .

(٩٩) فى معاهدة أهل ماه بهراذان وماه دينار واصفهان والرى وقوس والربيجان ، انظر مجموعة الوثائق السياسية ، صفحات ٢٤٦ ، ٢٥٢ .

(١٠٠) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣١ .

(١٠١) نفسـه .

(١٠٢) نفسه ، صفحات ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

وذهب الامام أبو حنيفة الى تقسيم الجزية الى أقسام ثلاثة ، اغنياء ثمانية واربعين درهما مثل الصيرفى والتاجر والطبيب وكل من كان بيده صـــــناعة أو تجارة ، اخذ منه على قدر طاقته ، واوساط ويدفعون اربعة وعشرين درهما من اهل الصناعة والتجارة الذين لا يحتملون القيمة السابقة وفقراء يؤخذ منهم اثنا عشر درهما على العامل بيده مثل الخياط والصباغ والاسكافى(١٠٣) ، فهو لذلك قسم الناس الى طبقات . كما جعلها للأقل والأكثر ومنع من اجتهاد الولاة ، بينما تركها الامام مالك لتقدير الامام واجتهاده ، أما الشافعى فقد ذهب الى انها مقدرة الأقل بدينار ولا يجوز الاقتصار على أقل منه لأنه مقدر بالشرع مما جاء فى السنة ، بينما اكثرها يرجع الى اجتهاد الوالى بحيث أن ما صولح عليه ولى الأمر من أهل المدينة اصبح ملزما لجميعهم ولأعقابهم . كما لا يجوز للوالى بعده أن يغيره الى نقصان أو زيادة(١٠٤) .

ويتضح من الاطار التطبيقى فى تحصيل الجزية مراعاة الجانب الانسانى فى تحصيلها وكذلك مراعاة التخفيف وعدم تكليف اهل الذمة ما لا يطيقون . فقد رويت عن الرسول عليه الصلاة والسلام عدة احاديث بهذا الشأن منها : **(احفظونى فى ذمتى)**(١٠٥) وقال عليه الصلاة والسلام أيضا : **(من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته او انتقصه أو اخذ منه شـيئا بغير طيب نفســــه فانا حجيجه)** كما اقتدى الخليفة عمر بن الخطاب بالسنة النبوية ، فنهى عن ضرب احد من اهل الذمة فى استيدائهم الجزية ولا يقاموا فى الشمس

---

(١٠٣) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٣٣ — ١٣٤ ويذكر يحيى بن آدم أن عمر بن الخطاب قد قسم الجزية على هذا النحو السابق ، انظر كتاب الخراج ، ص ٦٦ .

(١٠٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ١٤٤ .

(١٠٥) نفسه : ص ١٤٣ .

ولا غيرها ولا يجعـــــل فى أبدانهم شىء من المكاره ، لكن يرفق بهم(١٠٦) كما أمر على بن ابى طالب بالرفق وعدم ضرب الذمى لاستيداء الجزية ويظهر العفو فى عدم قدرة الذميين على الوفاء ، فالذى حرص عليه هو تأكيد الســــياسة الســــمحة فى التعامل معهم(١٠٧) .

وفى ضـــــوء ذلك يمكن أن نبين موقف الخلفاء والولاة فيما يخص التخفيف ، فنجد أن الخليفة عثمان بن عفان قد خفف عن أهل نجران العراق ثلاثين حلة من جزيتهم(١٠٨) ولما ولى معاوية شكا اليه اهل نجران تفرقهم وموت من مات واسلام من اسلم منهم ، فوضع عنهم معاوية مائتى حلة(١٠٩) . كذلك نجد أن الرغبة فى التخفيف عن أهل الذمة وعدم تكليفهم بما لا يطيقون شملت جميع الشرائح المكونة لهم مع الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد حظى اهل الذمة بعدله الذى شمل الجميع ، فكان حريصـــا على عدم ارهاق اهل الذمة وهم دافعو الجزية وزارعو الأرض لذلك كتب الى عامله على الكوفة (أن قو أهل الذمة فانا لا نريدهم لسنة أو لسنتين)(١١٠) وحين أراد أمراء بنى أمية أن ينساحوا فى البلدان أخذ عليهم الا يفسدوا مع أهل الذمة(١١١) ، كما خفف من أثقال الجزية المفروضة

---

(١٠٦) أبو يوسف : المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(١٠٧) يحيى بن آدم : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(١٠٨) نفسه : ص ٨٠ ؛ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد فرض عليهم الف حلة فى رجب والف حلة فى صفر مع كل حلة أوقية من الفضة ، انظر نفس المصدر ، ص ٧٨ .

(١٠٩) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٧٨ .

(١١٠) ابن عبد الحكم : ســـيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٦٧ .

(١١١) نفســـــه .

(١١٢) نفسه ، ص ٦٩ .

على النصارى فى كل بلد حتى قبرص وأيلة ونجران(١١٢) ووصل التسامح اقصاه مع نصر بن سيار والى خراسان الذى عفا عمن ارتد عن الاسلام من متأخرات الجزية والخراج فى اقليم ما وراء النهر(١١٣) .

وقد عمل الخليفة هارون الرشيد على تثبيت مقدار الجزية المأخوذة من أهل نجران وكتب لهم بمائتى حلة ردا على تعنت عمال الجزية ، كما امر باعفاء العمال من جبايتها وأن يكون مؤداهم الى بيت المال ببغداد(١١٤) .

اما فى مصر . وعلى الرغم مما ذكره المؤرخون مما وقع على النصارى من بلاء اثناء ولاية قرة بن شريك (٩٠ — ٩٦ هـ/٧٠٩ — ٧١٥ م) ، فان أوراق البردى تشهد بأن هذه الروايات غير صحيحة فكان قرة يهتم بعدالة حكام الاقاليم وعدم الاجحـــاف بأهل الذمة فيأمر عماله فى الأقاليم الا يقدروا على اهل الذمة ضرائب فوق طاقتهم ، كما كان يهدد عماله بعقابهم اشد العقاب اذا ظلموا الأهالى فى تقدير الضرائب المفروضة عليهم ، وكان يتجاوز أحيانا عن بعض ما كان يدفع كل عام من الجزية ، فيقبل من اهل الذمة اقل مما اعتادوا دفعه كل عام رفقا بهم(١١٥) .

وقد ابدى احمد بن طولون ميلا حسنا نحو الأقباط ومما يؤكد ذلك وصيته لعامل الخراج أحمد بن المدبر باعفاء رهبان دير القصير

---

(١١٣) البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ٤١٨ .

(١١٤) نفســـــه : ص ٧٩ .

(١١٥) جروهمان ، اوراق البردى العربية ، ترجمة د . حسن ابراهيم حسن ، عبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٣٤ ، الجزء الأول وثيقة رقم ١٤٩ ، ص ١٤ ، وثيقة رقم ١٥٣ ، ص ٢٧ ، سيدة كاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، بيروت ١٩٨٦ ، صفحات ٢١٦ — ٢١٧ .

من الجزية(١١٦) ، ومن الثابت أن الرهبان لم يعفوا من الجزية الا اذا كانوا فقراء يتصدق عليهم ولذلك عندما حاول الوزير علي بن عيسى أن يأخذ الجزية من القساوسة والرهبان والأساقفة في مصر ، سار فريق من الرهبان الى العراق حيث رفعوا شكواهم الى الخليفة المقتدر العباسي عام ٣١٢ هـ/٩٢٤ م فأمر باعفائهم منها(١١٧) .

ونفس الشيء يقال عن المواعيد المقررة للجزية ، فهي لا تجب على أهل الذمة في السنة الا مرة واحدة بعد انقضائها بشهور هلالية كما هو متبع في تحصيل أموال الزكاة(١١٨) وان كانت تؤخذ أحيانا على اقساط ستة أو خمسة أو أربعة او ثلاثة أو على قسطين كما فرضت في العراق في أول الأمر في كل شهر(١١٩) ، وذلك لارتباطها بعطاء الجند الذين كانوا يتقاضونه شهريا وكذلك كان الحال في الأندلس خلال القرن الثالث الهجري(١٢٠) . وفي القرن الرابع الهجري أمر الخليفة الطائع لله العباسي عام ٣٦٦هـ/٩٧٦م بأن تؤخذ الجزية في محرم من كل سنة من أهل الذمة بحسب منازلهم(١٢١) وكان لا يجوز للامام تحصيل الجزية قبل ميعادها(١٢٢)

---

(١١٦) البلوى : سيرة احمد بن طولون ، حققها وعلق عليها محمد كرد علي ، دمشق ١٩٣٩ .

(١١٧) ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ، ١٩٠٩ ، ص ٥١٧ .

(١١٨) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٤٥ .

(١١٩) يحيى بن آدم : الخراج ، ص ٧٥ .

(١٢٠) متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، بيروت ، الطبعة الخامسة ص ٩٨ .

(١٢١) نفســـــه

(١٢٢) ابن القيم الجوزية : أحكام اهل الذمة ، نشره صبحي الصالح ، دمشق ١٩٦١ م ، ج ١ ، ص ٢٩ .

وكان يراعى عدم قبول ميتة ولا خنزير ولا خمر فى الجزية ، فقد نهى عمر بن الخطاب عن ذلك(١٢٣) وكانت العادة جارية باعطاء براءة مكتوبة عند اداء الجزية حتى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى(١٢٤).

وبديهى أن تكون الدولة الاسلامية حريصـــة على أن تحقق صفتى العدل والصلاح فيمن يقوم بجباية الجزية لتكتمل فى النهاية منظومة الجزية التى قامت على أساس التسامح من جميع النواحى فى فرضها وتخفيفها وطرائق جبايتها ، فنجد خالد بن الوليد عند شرطه مع أهل الحيرة لجباية ما صالحهم عليه أن يؤدى الى بيت مال المسلمين من خلال عمال منهم يقومون بهذا الأمر ولهم الحق فى طلب أعوان من المسلمين ويتحمل بيت المال هذا العبء(١٢٥) .

وحرص القاضى أبو يوسف على أن تتضمن نصائحه الى الرشيد تعيين رجال من أهل الصلاح والخير والثقة فى كل مصر ، وأن يكون معهم أعوان يجمعون اليه أهل الأديان ليأخذ منهم على الطبقات(١٢٦) ، كذلك وجدنا الخليفة الطائع يتخير عماله من أهل الأمانة والنزاهة(١٢٧) .

وفى مصر فى عصر الولاة نجد أن الوالى يصدر تعليماته الى صاحب الكورة فيما يخص الجزية فيأمره أن يجمع رؤساء كل قرية

---

(١٢٣) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٣٧ .

(١٢٤) المسعودى — مروج الذهب ، بيروت ١٩٨٣ ، ج ٣ ، صـــفحات ١٤ — ١٥ .

(١٢٥) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٢٠ .

(١٢٦) أبو يوسف : المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

(١٢٧) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، طبعة دار الكتب ، ج ١٣ ، ص ٣٦٨ .

وذوى النفوذ ليختاروا رجالا أكفاء لتقدير الجزية على كل قرية بقدر استطاعتهم وأن يتم ذلك تحت اشراف صـــاحب الكورة ، وكان ينذرهم بأنه اذا حملت جزية فوق طاقتها أو اقل مما يجب من الضرائب فانه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب(١٢٨) وقد كان الجباة ــ فى الغالب ــ من أهل الذمة أنفسهم باعتبار أن وظائف الدولة لاسيما المالية تركت فى أيديهم .

وبدأت أهمية الجزية تتضاءل بمرور الزمن ، فبعدما كانت تمثل أحد أبواب الدخل الرئيسية فى صدر الاسلام ، بدأ يقل مقدارها نتيجة لدخول أهل الذمة فى الاسلام على اثر المعاملة المتسامحة والامتيازات التى نالوها وهم ذمة ولذلك أصبحت الجزية فيما بعد تسمى جوالى ربما من بداية القرن الرابع الهجرى مع خلافة الطائع العباسى ، كذلك وجدناها فى الدولة الفاطمية فى مصر وكان لها ديوان خاص بها عرف بديوان الجوالى(١٢٩) .

وعن سـياسة ختم الرقاب التى اتبعت فى بعض الأحيان لجباية الجزية ، فهذا الأمر لا يعد اضطهادا ، وكان الغرض منه هو التمييز بين من أدى الضريبةومن لم يؤدها ، ومن المعلوم أن العرب لم يستحدثوا ختم الرقاب، انما اصطنعه البيزنطيون فكانوا يقومون بختم رقاب الجميع بأختام من رصاص(١٣٠) .

خلاصة القول ، أن الجزية فرضـــت على أهل الذمة لقاء حمايتهم فى دار الاسلام ، ولم تكن مرهقة لهم ، كما روعى فى

---

(١٢٨) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٦٦ .

(١٢٩) القلقشندى ، صبح ، ج ٣ ، ص ٤٩٦ .

(١٣٠) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام : ترجمة وتعليق د . حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٣٩ .

جبايتها الجانب الإنسانى ولا يمكن مقارنتها بما كان يحصل عليه الذميون من امتيازات وحقوق ، وبما كان يفرض عليهم قبل الاسلام .

الخـــــــراج :

ومن الضرائب الأخرى المفروضة عليهم أيضا ، الخراج وهى ضريبة الأرض التى يدفعونها على ثمارهم وزروعهم لقاء استغلالها. وان غلب عليها فى بداية الدولة الاسلامية كلمة جزية أو شملت هذه الكلمة الجزية والخراج معا ، حقيقة لقد ظهرت فى بعض عهود الأمان المبكرة فى الشام(١٣١) فى خلافة أبى بكر وان تحـــدد فى خلافة عمر بن الخطاب لكل لفظ معناه ، فتختص كلمة جزية بما يدفعه الشخص عن نفسه وكلمة خراج بما يرد من الأرض(١٣٢) .

والخراج يختلف عن الجزية فى ثلاثة أوجه ، منها أن الجزية نص وأن الخراج اجتهاد ، وأن أقل الجزية مقدر بالشرع واكثرها بالاجتهاد ، والخراج اقله واكثره مقدر بالاجتهاد ، كما أن الجزية تؤخذ مع بقاء الكفر وتسقط بدخول الاسلام والخراج يؤخذ مع الكفر والاسلام(١٣٣) والمقصود بأرض الخراج هى أرض العجم التى فتحت عنوة وتركها الامام بين أيدى أهلها وكذلك أرضهم التى صالحوا المسلمين على أن يؤدوا الخراج عنها ويصيروا ذمة(١٣٤) ، استنادا

---

(١٣١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٤ ، أعطى عمرو بن العاص الامان لأصل سبسطية ونابلس على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم ، وعلى أن الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم .

(١٣٢) الريس : الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية ، ص ١٢٧ .

(١٣٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ١٤٢ ، فمن أسلم من أهل الصلح رفعت الجزية عن راسه وكان الخراج على أرضه على حاله ، انظر ، يحيى بن آدم الخراج ، ص ٢٥ .

(١٣٤) أبو يوسف : الخراج ، ص ٧٥ .

الى تشريعات الخليفة عمر بن الخطاب الذى لم يقسم الأراضى على الفاتحين وتركها لأهالى البلاد ، لأنه لم يرد أن يشغل جنده بالزراعة عن الجهاد(١٣٥) .

وقد قام الخليفة عمر بن الخطاب بوضع الوظائف الخراجية على سواد العراق بما تحتمله الأراضى ، واعتبر الفقهاء السواد الأصل الذى يقاس عليه نظائره(١٣٦) وقد حوت بعض عهود الأمان كلمة الخراج اما اجمالا أو بشكل ضمنى ، لاسيما فى العهود الخاصة بايران(١٣٧) ، لكنها جاءت مستقلة ومفصلة فى عهود الأمان الخاصة بالشام ومصر ومع بداية فتوحات الشام كان الخراج جريبا ودينارا مثلما قرر فى مصالحة خالد بن الوليد لأهل بصرى ودمشق بالاضافة الى زيت وخل لقوت المسلمين ، ثم كتب الخليفة عمر بن الخطاب الى أمراء الأجناد أن يضربوا الجزية على أهل الورق أربعين درهما وعلى أهل الذهب أربعة دنانير وعليهم من أرزاق المسلمين مدان حنطة وثلاثة أقساط زيتا كل شهر لكل انسان بالشام والجزيرة(١٣٨) .

وفى الصلح الذى عقده عمرو بن العاص مع أهل مصر ، جعل على كل جريب دينارا وثلاثة أرادب حنطة وفى رواية أخرى

---

(١٣٥) نفسه : ص ٢٧ .

(١٣٦) نفسه : ص ٣٨ — ٣٩ ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، وضع على جريب الزرع درهما وقفيزا ، وعلى الكرم عشر دراهم وعلى جريب الحنطة أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين .

(١٣٧) انظر مجموعة الوثائق السياسية ، معاهدة أهل طبرستان وهراه ومرو الروذ صفحات ٢٥١ ، ٢٥٥ .

(١٣٨) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣١ والجريب يساوى بالنسبة للفدان المصرى الحالى بنسبة ١ : ٣ر٧ تقريبا وكل فدان يساوى ثلاثة أجربة وكسر قليل — انظر الريس المرجع السابق .

ذكرها البلاذرى(١٣٩) ان أهل مصر صولحوا فى الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل والخل على دينارين فألزم كل رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك ، وكانت الضريبة التى تدفع عينا يطلق عليها فى أوراق البردى (ضريبة الطعام)(١٤٠) ومن الملاحظ أن ضريبة الخراج كانت تدفع نقدا وعينا . وفى الأندلس صالح عبد العزيز بن موسى أهل تدمير على دينار وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط خل وقسط عسل وقسط زيت(١٤١) .

وبديهى أن تعم روح التسامح فى فرض الخراج أيضا ، فقد لمسنا آنفا أنه روعى فى فرض الجزية قدر الطاقة ، كذلك نجد أن فرض الخراج قد روعى فيه ما تحتمله كل أرض ، لذلك اختلف تقديره بحسب النواحى كما كان يراعى فى تقدير الخــراج كمية المحصول التى تنتجها الأرض وحالة الأرض اذا كانت عامرة أو غامرة(١٤٢) . ويتضح ذلك فى مراعاة عمرو بن العاص فى عهده لأهل مصر بحالة النيل من نقصان أو زيادة(١٤٣) .

كما كان المسلمون حريصين على عدم تكليف أهل الخراج ما لا يطيقون متبعين نفس المنهــاج فى معاملة أهل الذمة . فقد كانت المصالحة هى الأساس فيما يؤديه أهل الذمة الى المسلمين ، فان عجزوا عن ذلك ، فيخفف عنهم وان احتملوا مما صولحوا عليه فلا يزاد عليهم(١٤٤) . لذلك وجدنا الخليفة عمر بن الخطاب حريصا

---

(١٣٩) نفسه : صفحات ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(١٤٠) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٥٧ .

(١٤١) الضبى ، بغية الملتمس ص ٢٥٩ ، والمد يساوى ٥را رطل بغدادى أو ٢را رطل مصرى . القسط يساوى ٣٧را لتر انظر الريس المرجع السابق صفحات ٣١٩ ، ٣٢٠ .

(١٤٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٨ .

(١٤٣) سيدة كاشف : المرجع السابق .

(١٤٤) يحيى بن آدم : الخراج ، ص ٢٤ .

على عدم تكليف الرعية ما لا يطيقون ولما ورد عليه عثمان بن حنيف وحذيفة عاملاه على العراق ، قال لهما : (لعلكما حملتما الأرض ما لا تطيق) فقال عثمان : (حملت الأرض أمرا هى له مطيقة ولو شئت لأضعفت(١٤٥) وحتى يتأكد من جباية هذه الأموال بالعدل كان يخرج مع خراج العراق كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه طيب ، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد(١٤٦) .

ومن نفس المنظور ، وجدنا الخليفة عمر بن الخطاب حريصا على عدم الاضرار بأهل الذمة ، فكتب الى أبى عبيدة يأمره بمنع المسلمين من ظلم أحد من أهل الذمة بمعنى أنه لا يحل لمسلم أن يتعمد الاضرار بجاره ولا بالقصد لتغريق أرضه أو تحريق ثماره ، أسوة بالرسول عليه الصلاة والسلام(١٤٧) كذلك يأمر قائده عندما نزل البصرة بعدما أذن لهم بالزرع الا تكون أرضا عليها جزية من أرض الأعاجم أو يصرف اليها ماء أرض عليها الجزية ولا تعرض لها الا بخير(١٤٨) .

كما لمحنا من سيرة الخليفة عثمان بن عفان حرصه على هذا المنهاج ، فأول كتبه وجهت الى عمال الخراج : (خذوا الحق ، وأعطوا الحق ، الأمانة قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها .. والوفاء .. الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فان الله خصم لمن ظلمهم)(١٤٩) وأوصى على بن أبى طالب عامله على عكرباء قائلا : (ولا تضربن أحدا منهم سوطا واحدا فى درهم ولا تقمه على رجله

---

(١٤٥) ابو يوسف : الخراج ، صفحات ٥١ — ٥٢ .

(١٤٦) نفسه : ص ١٢٤ .

(١٤٧) نفسه ، ص ١٠٧ . فقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الضرار وقال (ملعون من ضار مسلما او غيره ملعون) .

(١٤٨) حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٥٤ ، كان فى البداية لا يفرق بين الجزية والخراج وكانت كلمة الجزية تشمل الاثنين معا .

(١٤٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ صفحات ٢٢٤ — ٢٢٥ .

فى طلب درهم ولاتبع لأحد منهم عرضا من الخراج ، فانا انما أمرنا أن نأخذ منهم العفو)(١٥٠) أما الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ/٧١٧ — ٧١٩ م) فسياسته الاصلاحية شملت أهل الذمة أيضا ، فقد ألغى الزيادات التى كانت تؤخذ منهم قبل عهده من أهل الخراج فضلا عن الغاء هدايا النيروز والمهرجان(١٥١) كما نهى عن أن يضرب الناس فى جباية الخراج ردا على كتاب عدى بن أرطأة عامله على البصرة بعدم تأدية بعض الناس لما عليهم من الخراج حتى يمسسهم شىء من الخراج ، فكتب اليه عمر : (واذا أتاك كتابى هذا ، فمن أعطاك ما قبله عفوا والا فاحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب الى من أن القاه بعذابهم)(١٥٢) .

ولم يقف الأمر عند ذلك ، فقام الخليفة عمر بن عبد العزيز بالتخفيف عن أهل الخراج بصفة عامة وقرر اسقاط الكسور عنهم وهى بقايا الأموال الناتجة عن الفروق فى العملة(١٥٣) ولم يكن عمل عمر بن عبد العزيز فى عزل أسامة بن زيد صاحب خراج مصر عام (٩٦ — ٩٩ هـ/٧١٥ — ٧١٨ م الا مؤازرة وتسامحا للقبط ، فقد اشتد أسامة فى جباية خراج مصر(١٥٤) .

كما اهتم المنصور العباسى بتنظيم ديوان الخراج وجعله تحت اشرافه المباشر ، وحرص على الا يتولى وظائف الخراج الا من عرف بالكفاية ونزاهة اليد كما اشترط فى هؤلاء الموظفين الأمانة

---

(١٥٠) أبو يوسف ، المصدر السابق : صفحات ١٦ — ١٧ .
(١٥١) نفسه ، ص ٩٣ .
(١٥٢) نفسه : ص ١٢٩ .
(١٥٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٨١ لمزيد من التفصيلات انظر الريس : الخراج والنظم المالية صفحات ٢٣٢ — ٢٣٣ .
(١٥٤) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٥٢ .

والتفقه فى أمور الدين(١٥٥) . كذلك ما حدث من اصلاح فيما يخص العدول عن نظام المساحة الى نظام المقاسمة فى عهد المهدى والذى تحقق من ورائه فوائد كثيرة قد شملت أهل الذمة أيضا(١٥٦) .

وتضمنت نصائح القاضى أبى يوسف(١٥٧) للخليفة الرشيد حلولا عملية للاصلاح الاقتصادى ومنها : اتخاذ قوم من أهل الصلاح لتوليتهم على الخراج ولا يضربن رجلا فى درهم خراج ، وأن يؤخذ منهم بالعفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقاتهم فقال له : (ويجب على من وليت أن لا يكون عسوفا لأهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم وعليه اللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وانصاف المظلوم) .

وظلت الرغبة فى التخفيف عن أهل الذمة مستمرة فى العصر العباسى الثانى ، فعندما شكا أهل احدى القرى من كورة نابلس وهم سامرة ضعفهم وعجزهم عن أداء الخراج على خمسة دنانير ، فأمر الخليفة المتوكل بردهم الى ثلاثة دنانير(١٥٨) .

كما شملت عهود الصلح مع غير المسلمين فى البلاد المفتوحة بعض الأمور الواجبة منها مادية مثل ارشاد ابن السبيل واصلاح الطرق وبناء الجسور وان يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام

---

(١٥٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ ٩ ، ص ٢ .

(١٥٦) أبو يوسف ، المصدر السابق ، ص ٥٤ . ونظام المساحة لايراعى فيه المحصول أو أسلوب الزراعة فى جباية الضرائب اما نظام المقاسمة فمقتضاه تقاسم الدولة المزارعين وفق نسب معينة دون النظر لمساحة الأرض ويراعى فيه أسلوب السقيا . لمزيد من التفصيلات انظر نفس المصدر .

(١٥٧) نفس المصدر ، صفحات ١١٤ — ١١٥ .

(١٥٨) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٦٣ .

من أواسط طعامهم(١٥٩) ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة المسلمين مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة وتبيت دوابهم من غير شعير وقد أعفى أهل المدن من واجب الضيافة(١٦٠) وكان عليهم أيضا أن يوقدوا النيران للجند الفاتحين ولا يدلوا على عورة المسلمين وأخرى معنوية منها الا يسبوا مسلما ولا يقتلوا ولا يعتدوا ، والا تكون ذمة المسلمين منهم بريئة(١٦١) .

نخلص من هذا العرض السابق الى أن عهود الأمان قد أتاحت كافة الحريات الدينية والمدنية والتى لم تتح لهذه الشعوب قبلا وارتبطت هذه الحريات أو الحقوق بشرط الجزية الذى روعى فيه دائما التخفيف ، كذلك قد تقرر لغير المسلمين بمقتضى الصلح حيازة أراضيهم مقابل دفع ضريبة الخراج واذا كانت هناك بعض الواجبات المفروضة على أهل الذمة فهى لا يمكن أن تقارن بما تتيحه الدولة الاسلامية لهم من امتيازات أقلها التمتع بمرافق الدولة وحتى بالنسبة لضيافة جند المسلمين يتضح منها الرفق ، أما الشروط الأخرى من منعهم من الغش وغيره فهى أمور طبيعية مرتبطة بمساكنة أهل الذمة للمسلمين على أرض واحدة ولذلك فعدم الالتزام بصيانة المسلمين وما الى ذلك تجعل عهد الذمة منتقضا فى حين أن الجزية التى تعتبر شرطا لحماية الذمى فعدم الوفاء بها لا يعد نقضا للعهد كما أسلفنا .

---

(١٥٩) مجموعة الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ص ٢٤٦ ، رقم ٣٣٦ ، ص ٢٤٩ ، أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥٥ وما بعده .

(١٦٠) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، صفحات ١٤٤ — ١٤٥ .

(١٦١) انظر المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٥٣ ص ٢٦٥ ، معاهدة أبى عبيدة لأهل دمشق ، معاهدة عياض لأهل الرقة وثيقة رقم ٣٥٩ ، ص ٢٧٠ .

عقـــد الذمة وشـــروطه :

ولما كانت الأمور عادة تنشأ ثم يوضع لها اطار بعد أن تكتمل عبر القرون لهذا كان حال هذه الشروط التى حوتها عهود الأمان ، فقد أعيدت صياغتها من قبل فقهاء المسلمين وأصبحت شروطا واجبة وضعت فى قالب قانونى صاغه الفقهاء فى مرحلة لاحقة ومنهم القاضى أبو يوسف(١٦٢) الذى قدم نصائحه للرشيد فى هذا الشأن فيما ينبغى أن يكون عليه أهل الذمة فيما يميزهم عن المسلمين فى الزى وما يجب اتباعه فى بناء الكنائس وما الى ذلك واذا كان أبو يوسف قد عاش فى القرن الثانى الهجرى ، فالماوردى الذى عاش خلال القرن الخامس الهجرى قد وضع الاطار النهائى لمعاملة غير المسلمين ضـمنها كتابة الأحكام السلطانية(١٦٣) شـــروط مستحقة وشروط مستحبة على أهل الذمة .

اما المستحقة فستة شـــروط :

١ ــ الا يذكروا كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف .

٢ ــ الا يذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء .

٣ ــ الا يذكروا دين الاسلام بذم ولا قدح فيه .

٤ ــ أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح .

٥ ــ الا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم .

٦ ــ الا يفتنوا مسلما عن دينه أو يتعرضوا لماله أو دمه .

---

(١٦٢) الخراج : ص ١٣٧ .
(١٦٣) ص ١٤٥ .

وهذه الشروط ملزمة فاذا نقضوها انتقض عهدهم .

واما المستحبة فهى ، ايضا ستة شروط :

١ ــ لبس الغيار وشد الزنار .

٢ ــ ألا تعلو اصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم .

٣ ــ ألا تعلو ابنيتهم فوق ابنية المسلمين ، ويكونوا ان لم ينقصوا مساوين لهم .

٤ ــ الا يجاهروهم بشرب خمورهم ولا باظهار صلبانهم وخنازيرهم

٥ ــ أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة .

٦ ــ أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهجانا ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير .

وهذه الشروط الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضا للعهد ، لكن يؤخذون بها اجبارا ويؤدبون عليها زجرا ، ولا يؤدبون ان لم يشترط ذلك عليهم .

وهذه الشروط السابقة تستند الى ما اصطلح على تسميته بالشروط العمرية التى استهدفت تنظيم المجتمع الاسلامى فى عصره واظهار ما فى الاسلام من عزة ويبدو أن تلك الشروط ظلت مجهولة لفترة ولم تظهر الا فى أواخر القرن الثانى الهجرى(١٦٤) ويرى أحد الدارسين(١٦٥) أن العهد العمرى وثيقة ظاهرة الوضع ويضيف ان كتب الفقه والنظم الاسلامية لا تمثل الوضع فى صدر

---

(١٦٤) قاسم عبده قاسم : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٢٧ .

(١٦٥) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٤٣٩ ــ ٤٤٣ .

الاسلام ولا فى العصور التى كتبت فيها وانما كانت تمثل أمانى مؤلفيهـــــــا .

ولا يستبعد أن تكون هذه الشروط التى نسبت الى الخليفة عمر بن الخطاب ترجع الى عهده ولكنها لم تصغ الا فى فترة متأخرة فيما بعد ، ومن الثابت أن عمر بن الخطاب قد ســـــن كثيرا من التشريعات للدولة الاسلامية وبديهى أن يحتل أهل الذمة جزءا من هذه التشريعات ، كذلك فقد تضمنت هذه الشـــروط ما وجد فى عهود الأمان التى تمت فى عهده وعلى هذا فان الأصل فى تنظيم حياة أهل الذمة قد بدأ مع عمربن الخطاب ثم أعطى الفقهاء الاطار النظرى لهذه المعاملة فى وقت متأخر مدفوعين برغبة جامحة فى حماية الاسلام ، مما يدل على حرصهم على تأكيد مثل هذه الشروط لأن أهل الذمة لم يلتزموا بها وكانت تصدر الأوامر من وقت لآخر من قبل الخلفاء لتلزم أهل الذمة بها أى أن هذه الشروط بالفعل كانت مثار للجدل خلال العصور المختلفة .

وتفصيل ذلك ، أن الشروط العمرية ، ترجع الى شروط رضى بها أهل الذمة فى عهود الأمان فى الشام ومصر وأرسلوا بها كتابا الى الخليفة عمر بن الخطـــــاب يؤكدون فيه ما عاهدوا المسلمين به من التزام الحدود ويعقبه زيادات من الخليفة عمر .

(ونص هذا الكتاب على(١٦٧) : (لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا على أنفسنا أن لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان فى خطط المسلمين وأن

---

(١٦٧) ابن الأخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، القاهرة ص ٩٣ ، ابن القيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، جـ ٢ ، صفحات ٦٥٩ — ٦٦٢ .

نوسع أبوابها للمارة ولبنى السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نأوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم عينا للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه أحدا ، ولا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول فى دين الاسلام ان أرادوا ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم فى مجالسنا اذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ، ولا نتسمى بأسمائهم ، ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب بالسروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية ، وأن نجز مقادم رءوسنا ، ونلزم زينا حيث كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا نفتح كتبنا فى طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب بنواقيسنا فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسملين ، ولا نخرج شعانيننا ولا طاغوتنا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نوقد النيران فى طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ، ولا نطلع فى منازلهم ، ولا تعلو منازلنا منازلهم ، (فلما أتيت أمير المؤمنين عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحدا من المسلمين ، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فان نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم علينا وضمناه عن أنفسنا وأهل ملتنا ، فلا ذمة لنا عليكم ، وقد حل بنا ما حل بغيرنا من أهل المعاندة والشقاق) .

وغالى بعض المؤرخين(١٦٨) فى ذكر هذه الشروط تفصيلا لاسيما الخاصة بملابس أهل الذمة للتمييز بينهم وبين المسلمين ، (فعليهم أن يلبسوا خلاف لباس المسلمين ليعرفوا به ، اللون الأصفر لليهود على رءوسهم ويشد النصارى الزنانير فى أوساطهم

---

(١٦٨) نفس المصدر ، ص ٩٦ .

فوق الثياب ، والتمييز يحدث بأحد أمرين ، لو شرط عليهم الغيار والزنار جميعا أخذوا به ويكون فى رقابهم خاتم من رصاص أو نحاس يدخل معهم الحمام ليميزوا به وأن يلبسوا العمائم والصلبان والمرأة تشد الزنار تحت الأزار ويكون فى عنقها خاتم يدخل معها الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض لتميزها عن غيرها) .

هذه الشروط السابقة تضمنت عدة نواه والزام فيما يخص الملابس أو ما عرف بالغيار ، كذلك ما يخص عدم بناء الكنائس وعدم ركوب الخيل ولمناقشة هذه الشروط فى ضوء الممارسات الفعلية نستطيع أن نقف على حقيقتها .

وفى البداية لنا أن نقرر أن الغيار لم يفرض على أهل الذمة فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام(١٦٩) ، كما لم تحو عهود الأمان التى أبرمت شرقا وغربا من خلال القادة الفاتحين مثل هذه الشروط الا فى شرط خالد على أهل الحيرة(١٧٠) (ولهم كل ما لبسوا من الزى الا زى الحرب) ، ولم يوجد الا فى العهد العمرى السابق الذكر ، وهذا التمييز فى حد ذاته أمر مقبول ، لأن المسلمين وهم الفاتحون والقائمون فى الأمصار الاسلامية ، فهم جميعا فى حكم الجنود يلبسون ملابس الحرب وفى نفس الوقت عاش أهل الذمة فى كنف هذه الدولة الناشئة والتزموا بواجبات معينة يؤدونها الى المسلمين ، فمعنى التشبه بالمسلمين الهروب من الالتزامات المفروضة عليهم من خلال العهود المبرمة ونفس الشىء فيما يخص منعهم بألا يتخذوا شيئا من السلاح وكذلك منعهم من ركوب الخيل لأنها من آلات الحرب فى هذه الفترة لأن حمايتهم مكفولة من قبل الدولة الاسلامية مقابل دفع الجزية كما سبق أن أسلفنا .

---

(١٦٩) ابن القيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ .
(١٧٠) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥٦ .

ويرى أحد الدارسين(١٧١) ان هذا التمايز لم تكن له ضرورة فى بداية الفتوحات الاسلامية لأن العرب كانوا متمايزين بملابسهم عن أهالى هذه البلاد ولكن بمضى الوقت بدأ المسلمون يتجهون ناحية الأخذ بمظاهر الترف والرفاهية من جهة ، كما أن بعض أبناء البلاد المفتوحة أخذوا يحاكونهم فى مظهرهم شأن الشعوب المغلوبة فى محاكاة الفاتحين وهكذا نشأت الحاجة لتمييز المسلمين عن غيرهم فى ذلك الوقت . مما يؤكد أن العهد العمرى بصورته التقليدية لم يظهر الا فى أواخر القرن الثانى الهجرى .

وعلى ما يبدو فان تلك الشروط المتعلقة بزيهم لم يلزموا بها الا فى فترات قليلة ، وكانت الأوامر التى تصدر فى الدولة الاسلامية لتلزمهم بلبس الغيار وغيره تأتى كرد فعل لتسلطهم ومنها ما كتبه الخليفة عمر بن عبد العزيز الى الآفاق (بألا يمشين نصرانى الا مفروق الناصية ويلبس قباء ولا تمشين امرأة الا بزنار من جلود ولا يلبس طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة ولا نعلا لها عزبة ولا يوجدن فى بيته سلاح ، كذلك لا يركبن نصرانى على سرج ولا يركبوا بالأكف ولا تركبن امرأة من نسائهم راحلة)(١٧٢) .

وبالنظر الى هذه الأزرر السابقة لا يمكن أن نعتبر ما أصدره عمر من أوامر شدة مستحدثة ، لكنهم كانوا قد الزموا بهذه الشروط كما أنه من الثابت أن أهل الذمة قد عوملوا معاملة تقوم على أساس الود والاحترام ، وقد شملهم عدله ، ولكنه دفع الى الزامهم بهذه الشروط وهو الحريص على رفعة الاسلام .

---

(١٧١) قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصر الوسطى ، ص ١٥٥ .

(١٧٢) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٦٦ .

ومما يؤكد أيضا ان أهل الذمة لم يلتزموا بهذه الشروط فى العصر العباسى أيضا ما نجده من حرص القاضى أبى يوسف فى كتاب الخراج(١٧٣) على نصح الخليفة الرشيد بضـــرورة تطبيق ما فرضه عليهم الخليفة عمر بن الخطاب فيما يخص الغيار وغيره ، ولذلك وجدنا الرشيد فى عام ١٩١ هـ / ٨٠٧ م يأمر بأن يؤخذ أهل الذمة فى مدينة السلام (بغداد) بما يخالف هيئتهم من هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم وبأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات مثل الخيط وأن يجعلوا اشراك نعالهم مثنية وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة(١٧٤) .

ولما كان أهل الذمة سرعان ما يخرجون على هذه الشروط ، فكان اصدار أوامر جديدة أمرا مقبولا ، لذلك أصدر الخليفة المتوكل فى عام ٢٣٥ هـ/٨٤٩ م أوامره بالزام النصارى وأهل الذمة بوجه عام بلبس الطيالس العسلية ، ومن أراد أن يلبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين ، فليجعل عليها ذرين ، وكذلك أمروا بأن يجعلوا على ما ظهر من لباس مماليكهم رقعتين لونهما يخالف لون الثوب الظاهر الذى عليه ، وأن تكون احدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى خلف ظهره(١٧٥) وتلا ذلك أمر آخر من قبل المتوكل عام ٢٣٩ هـ/٨٥٣ م هو أن يقتصر أهل الذمة فى مراكبهم على البغال والحمير دون الخيل والبراذين(١٧٦)

غير أن هذه الأوامر لم تستمر الا قليلا وكان أهل الذمة يأبون

---

(١٧٣) ص ١٣٧ .

(١٧٤) ابن الاثير ، الكامل ، القاهرة ١٩٨٣ ، ج ٥ ، ص ١٢٧ .

(١٧٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٩ ، صفحات ١٧١ — ١٧٢ .

(١٧٦) المقريزى ، الخطط ، طبعه بيروت ، ج ٢٦ ، ص ٤٩٤ .

الخضوع(١٧٧) وكانت مغالاتهم فى الزى والركوب مما يدفع العامة الى الثورة عليهم ، مثلما حدث فى عام ٢٧٢ هـ / ٨٥٨ م عندما ثار عامة بغداد على النصارى لمخالفتهم وركوبهم الخيل(١٧٨) كذلك نجد شاعرا مثل ابن المعتز فى أواخر القرن الثالث الهجرى يشكو من مغالاة النصارى فى البغال والسروج(١٧٩) ، ولم نسمع لمدة طويلة خلال العصر العباسى الثانى عن أوامر صدرت بخصوص أهل الذمة حتى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، ولذلك صدر أمر الخليفة القائم عام ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م بالزام أهل الذمة ملابس يعرفون بها عند المشاهدة ، ولهذا الأمر استدعى جاثليق النصارى ورأس الجالوت ووافقوا على هذه الأوامر(١٨٠) .

وفى مصر فى العصر الفاطمى والذى بلغ التسامح فيه أقصاه تجاه أهل الذمة ، فمع زيادة سطوتهم واشتطاطهم وجدنا الخلفاء الفاطميين يحدون من سلطاتهم ، فقام الخليفة الحاكم بأمر الله بمراقبة أهل الذمة من خلال واجبات الحسبة ، كما عاد الى الشروط العمرية وزاد فيها ، وبغض النظر عما اتسمت به شخصية الحاكم وفترة حكمه بشكل عام من اضطراب وتقلب ، فان تصرفاته تجاه أهل الذمة كانت محكومة بأسباب منها : اشتداد بأس أهل الذمة على المسلمين منذ أن تمكنوا من الدولة أيام العزيز وسيطرتهم البالغة على النواحى كافة .

وبدأ الحاكم بأمر الله فى اصدار أوامره الخاصة بتمييز أهل

---

(١٧٧) روفائيل بابو اسحاق ، أحوال نصارى بغداد فى عهد الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٠ ، ص ١٠٣ .

(١٧٨) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٩ .

(١٧٩) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٤ ، ص ٢٩٨ .

(١٨٠) ابو الفرج الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت ١٩٩٢ ، ج ١٥ ، ص ٢٩٢ .

الذمة عن المسلمين بملابس خاصة ، وربما غلب عليها اللون الأسود من عمائم وتلفيعات ، لأن اللون الأسود هو شعار العباسيين ، وجعل القبط يحملون صلبانا واليهود يحملون الخشب اشارة الى رأس العجل ومنعهم من ركوب الخيل وأمرهم بركوب البغال والحمير بركب من خشب وسروج ولجم من سير أسود غير محلاه بفضة ، كما أمرهم أن يتميزوا فى الحمامات عن المسلمين ثم أفرد لهم حمامات على حدة ، لكن أهل الذمة فى الغالب لم يمتثلوا لهذه الأوامر ونزعوا الغيار وتشبهوا بالمسلمين حتى لا يعرفوا(١٨١) فنادى بينهم أن يلتزموا بما أمر ، كما أنه بدأ منذ عام ٤٠٠ هـ/١٠١٠ م فى أصدار أوامر صارمة زيادة على الشروط العمرية ، فجعل النصارى يحملون صلبانا ثقيلة ، فبعد أن كان طولها شبرا جعلها ذراعا ونصف وزنتها خمسة أرطال وختمها بالرصاص ، أما اليهود فجعلهم يلبسون الزنار ويحملون الخشب الثقيل(١٨٢) ومع ذلك فقد رجع الحاكم فى آخر سنى حكمه عما زاده على الشروط العمرية واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار(١٨٣) .

ومما لاشك فيه أن أهل الذمة قد عوملوا معاملة طيبة خلال العصر الفاطمى ، فأشارت وثائق الجنيزة الى احتفاظ اليهود بحقوقهم المدنية كاملة وحتى القيود التى ارتبطت بملابس اليهود وخاصة النساء(١٨٥)، فقد ذكرت الوثائق أن ملابس اليهوديات كانت

---

(١٨١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٩٥ .

(١٨٢) يحيى بن سعيد الانطاكى ، تاريخ أو صلة تاريخ اوتيخا ، القاهرة ١٩٠٩ ، ص ٣٠٠ .

(١٨٣) نفسه ، ص ٢٣٢ .

(١٨٤) Ashtor, Matériaux pour l'histoire de prix, dans l'Egypte médievale JESHO, VI, 1963, PP. 151, 170. 173! Goitein, Mediterranean Society, Barkely, Los Anglas, 1967 III, PP. 166 — 167.

مماثلة للمسلمات ولا يوجد أى تحديد في ارتداء لون معين من اردية وأغطية رأس ، وبالاطلاع على قوائم الجهاز الخاصة باليهوديات فى العصـــــر الفاطمى نقف على هذه الحقيقة ، بل اكثر من ذلك أن الخلفاء كانوا يوزعون على موظفيهم من الذميين وزوجاتهم بعض الملابس الأنيقة ومنها الخلعة(١٨٥) .

وبديهى أن يكون المسلمون مدفوعين باصدار بعض القرارات الصارمة ردا على افعال أهل الذمة ومنها ما قام به الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى من الزام اليهود الذين أظهروا الاسلام بتمييزهم فى الزى عن المسلمين لأنهم لم يكفوا عن أذى المسلمين والتجسس عليهم ونقل أسرار المسلمين الى الأعداء ، فوضع لهم لباسا مميزا عبارة عن ثياب كحلية اللون ذات أكمام مفرطحة السعة وطولها يصل الى اقدامهم وبدلا من العمائم ، جعل على رءوسهم (كلوتات) واصلة الى ما تحت آذانهم ، وشاع هذا الزى بين جميع يهود المغرب ، ويبرر الخليفة هذا العمل بقوله : (لو صح عندى اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم)(١٨٦) ، فيبدو من هذا الاجراء خوف الخليفة يعقوب المنصور على المسلمين من اختلاط اليهود الذين يظهرون الاسلام ويبطنون دينهم ولقد ظلوا على هذا الحال طوال عهده وصدرا من عهد ابنه الناصر ، فتوسلوا اليه فغير زيهم الى ثياب صـــــفر وعمــــائم صـــــفر(١٨٧) وقد شـــــملت هذه الأوامر الأندلس فوجدنا لها صدى فى كتاب ابن عبدون : (آداب الحسبة ، من ارتداء النصــــارى واليهود ثيابا معينة والا يركب أحد منهم جوادا) لأن

---

(١٨٥) Mann, the Jews in Egypt and Palestine under the fatimids Oxford. 1967, 11, P. 267.

(١٨٦) المراكشى ، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، حققه وعلق عليه سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٩ ، صفحات ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(١٨٧) نفســــه .

نصارى الاندلس كانوا هم أيضا يتجسسون على المسلمين لحساب ملوك النصارى وكثيرا ما أغروهم بحرب المسلمين وغزوهم . ويرى أحد الدارسين(١٨٨) أن هذا الاضطهاد بدأ عقب توســـع حركة الاسترداد المسيحى فى قلب أسبانيا .

وخلاصة القول ، أن ما تعرض له أهل الذمة من فرض بعض القيود والتى صدرت فى صورة أوامر ملزمة ، كان السبب فيها تصرفاتهم نتيجة لعدم التزامهم بالشروط السهلة المفروضة عليهم فى البداية ، ثم زيادة سطوتهم وخيانتهم للمسلمين مما أدى الى اصدار مثل هذه الأوامر فى أوقات متفرقة ، والتى لم يلتزم بها فى الغالب الا فى السنوات التى صدرت فيها .

أما المسألة الثانية ، فهى الخاصة ببناء الكنائس ، ولقد جاء بصددها فى الشروط العمرية ما نصه : (وشـــرطنا على أنفسنا أن لا نحدث فى مدائننا ولا فيما حولها دير ، ولا كنيسة ولا صومعة راهب ولا يجدد ما ضرب منها ولا ما كان فى خطط المسلمين) ومن المعلوم أن عهود الصلح قد أتاحت الأمان لدور العبادة لأهل الذمة من كنائس وبيع وبيوت النار الى جانب ما نصت عليه أيضا من : (أن لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها)(١٨٩) فكان طبيعيا أن تشترط بعض العهود عليهم الا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة(١٩٠) ، وبالأولى أن لا يقوم أهل الذمة ببناء بيوت عبادتهم

---

(١٨٨) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١١٢ .

(١٨٩) انظر معاهدة خالد بن الوليد لأهل عانات ومعاهدة حبيب بن مسلمة الأنصارى لأهل دبيل ، مجموعة الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٢٩٧ ، ص ٢٢٥ ، وثيقة رقم ٣٤٦ ، ص ٢٥٨ .

(١٩٠) انظر معاهدة أبى عبيدة بن الجراح لأهل الشام ومعاهدة عياض بن غنم لأهل الرقة ، نفسه ، وثيقة رقم ٣٥٣ ، ص ٢٦٥ ، وثيقة رقم ٣٥٩ ، ص ٢٧٠ .

فى المدن الجديدة التى انشأها العرب(١٩١) مع بقاء حقهم فى أن يبنوا ما تهدم من بيعهم وكنائسهم القديمة(١٩٢) .

وفى ضوء ما سبق نستطيع أن نتبين الى أى حد تم تطبيق هذا الاطار النظرى من خلال ما حدث بالفعل ، فلقد حافظ العرب منذ البداية على تطبيق ما اشترطوه على أنفسهم من حماية دور العبادة الخاصة بالأديان الأخرى ، فلم تمتد أيديهم الى بيع أو محلات اليهود أو كنائس النصارى ، فعندما أراد الخليفة عمر بن الخطاب انزال العرب فى الموصل عام٢٠ هـ/٦٤١م فكان بها كنائس ومنازل للنصارى وبيع ومحله لليهود (فقام عتبة بن فرقد السلمى واليه هناك فأنزل العرب فى أماكن أخرى(١٩٣) .

كما حـرص الخليفة عمر بن عبد العـزيز على تطبيق هذه العهود ، فكتب الى عامله يأمره بألا يهدم كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحوا عليه(١٩٤) ، كما تطالعنا بعض النصوص التى أوردها البلاذرى(١٩٥) من حماية كنائس أهل الذمة التى صولحوا عليها ، وكذلك احترام دور عبادتهم ، فقد قدم عليه اثنان من الخوارج فسألاه عن أهل العهود فقال لهما : لهم عهودهم ، وسألاه أيضا فى أن تخرب الكنائس فأبى عمر عليهم وقال لهما انها من صلاح رعيتى(١٩٦) ، ومن المؤكد انه لم يهدم أى كنيسة قديمة ، كذلك سمح خالد بن عبد الله القسرى والى العراق فى خلافة هشام بن

---

(١٩١) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٦١ .
(١٩٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ .
(١٩٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٢٧ .
(١٩٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٦ ، ص ٥٧٢ .
(١٩٥) المصدر السابق ، صفحات ١٣٠ — ١٣٢ .
(١٩٦) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٧٤ .

عبد الملك للنصارى بوجه عام بأن يبنوا كنائس جديدة ، فقد كانت أمه نصرانية ، بنى لها كنيسة بالكوفة وكان متسامحا أيضا مع اليهود(١٩٧) ومع قيام الدولة العباسية وانشاء مدينة بغداد ، كان من المتوقع أن لا ينشأ فيها كنيسة ولا بيعة ، باعتبارها مدينة جديدة، ومع ذلك فقد كان لنصارى بغداد معابد وكنائس عديدة فى شرقيها وغربيها ، لأن الخلفاء العباسيين قد سمحوا لهم بانشائها وترميم ما تهدم منها ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اشتهرت هذه الكنائس بأبنيتها الشامخة وقبابها العالية وساحاتها الواسعة ، كما كانت هياكلها مفروشة بضروب الرخام المجزع وجدرانها وسقوفها مطلية بجص ابيض أو مصبوغة بأصباغ الذخائر النادرة وأرضها مبلطة بأنواع المرمر الفاخر فضلا عما حوته خزائنها من الذخائر النادرة والصور الغالية والآنية الذهبية والفضية(١٩٨) وليس الغرض من هذا الوصف لهذه الكنائس الا اظهار ما تمتع به النصارى فى مدينة السلام من حرية واسعة فى انشاء كنائسهم مع كونها مدينة جديدة وكذلك ان هذا الوصف السابق يعكس بجلاء حال الثراء التى كان فيها هؤلاء النصارى والذى سوف نوضحه فى حينه ، كما انتشرت الديارات النصرانية فى بغداد ، وكانت مدينة المنصور محفوفة فى أكثر أطرافها بالديارات النصرانية والتى كان يلجأ اليها الزائرون من غير النصارى حتى أن بعض الخلفاء اتخذها ملجأ بعيدا عن متاعب الحكم يقيمون فيها مع من يأنسون اليه(١٩٩) مما يؤكد مدى تسامح خلفاء العصر العباسى تجاه النصارى ، كما كان يسمح للنصارى

---

(١٩٧) فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ترجمة عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣١٩ .

(١٩٨) روفائيل بابو اسحاق ، أحوال نصارى بغداد ، ص ٨١ .

(١٩٩) الشابشتي ، الديارات ، دمشق ١٩٥١ ، ص ١٢ .

ببناء الكنائس من قبل البويهيين حيث كان هؤلاء النصارى مهيمنين على شئون الدولة فتطالعنا المصادر بأن الوزير « نصر بن هارون » النصراني استأذن « عضد الدولة » في عمارة البيع والأديرة(٢٠٠).

وفي مصر ، قد سمح عمرو بن العاص للقبط ببناء الكنائس ، فتم بناء كنيسة مارمرقص بالاسكندرية خلال ولايته الثانية (٣٨ — ٤١ هـ/٦٠٨ — ٦٦١ م)(٢٠١) وتبدو حسن معاملة الولاة للقبط في سيرة الولاة الذين تولوا مصر بعد عمرو ، بانهم ساروا على منهجه ولم يكتفوا بمساعدة الأقباط على تجديد الكنائس القديمة ، بل شجعوهم على بناء كنائس جديدة ، فأول كنيسة بنيت في الفسطاط بحارة الروم كانت في ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤٧ — ٦٣هـ/٦٦٧ —٦٨٢م) وأنكر الجند على مسلمة وقالوا : (أتقر لهم أن يبنوا الكنائس .. حتى كاد أن يقع بينهم وبينه شر ، فاحتج عليهم مسلمة وقال : انها ليست في قيروانكم وانما هي خارجة في أرضهم فسكتوا عند ذلك(٢٠٢) .

ومن الكنائس التي تم بناؤها في عصر الولاة كنيسة أبي مقار(٢٠٣) ، كما بنيت عدة كنائس في ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٠ — ٨٩ هـ/٦٨٥ — ٧٠٥ م) منها كنيسة مارجرجس وكنيسة أبي قير في داخل قصر الشمع ، كما جددت كنيسة القديس مرقص(٢٠٤) وبنيت عدة كنائس في حلوان(٢٠٥) كذلك بنيت عدة كنائس في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥هـ/٧٢٣ —

---

(٢٠٠) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٠١ .

(٢٠١) المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٩٢ .

(٢٠٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٣٢ .

(٢٠٣) ساويرس بن المقفع ، سير الآباء البطاركة نشره يسى عبد المسيح ، أسولدبرمستد ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٦ .

(٢٠٤) نفسه ، ص ٢٤ .

(٢٠٥) نفسه .

٧٤٣ م) ومنها ما أذن به واليه على مصر الوليد بن رفاعة (١٠٩ — ١١٦ هـ/٧٢٧ — ٧٣٤ م) من بناء كنيسة أبى مينا بخط الحمراء بظاهر الفسطاط(٢٠٦) ، كذلك تم بناء عدة كنائس خلال خلافة هشام بن عبد الملك(٢٠٧) ، كما سمح الوالى العباسى موسى بن عيسى (١٧١ — ١٧٢ هـ/٧٨٧ — ٧٨٨ م) للقبط بناء الكنائس التى هدمها الوالى الذى سبقه ومنها كنيسة مريم وقد أيده فى ذلك، أكبر حجتين فى الفقه الاسلامى وقتذاك وهما الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالا :(هو من عمارة البلاد ، واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين)(٢٠٨) ويرى أحد الدارسين(٢٠٩) أن هذا لا يكشف فقط عن سياسة الوالى ازاء المسيحيين بل يبين لنا أن هذين الحجتين فى الفقه الاسلامى كانا يقولان ببناء الكنائس وتعميرها ويعدان هذا من مظاهر التعمير فى البلاد(٢١٠) .

كما كثر انشاء الكنائس بمدينة القاهرة حاضرة الفاطميين ، وهذا الأمر لا يعد غريبا لأن الفاطميين كانوا من أكثر الحكام تسامحا تجاه أهل الذمة ، وذكر المقريزى كثيرا من الكنائس التى أنشئت فى عصرهم ، فمع مجىء جوهر الى مصر وانشائه لمدينة القاهرة اضطر الى هدم دير بالقرب من المدينة الجديدة ، فعمر ديرا آخر

---

(٢٠٦) أبو صالح الأرمنى . كنائس وأديرة مصر ، اكسفورد ١٨٩٤ ، ص ٧٧ .

(٢٠٧) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٩٣ .

(٢٠٨) الكندى ، الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٣٢ حدث بين عامى ١٦٩ — ١٧١ هـ هدم الكنائس المحدثة فى مصر فى ولاية على بن سليمان والى مصر من قبل الرشيد . انظر نفسه ، ص ١٣١ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥١١ .

(٢٠٩) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٧ .

(٢١٠) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ، ص ١٣٦ .

سمى بدير الخندق عوضـــــا عن الدير الذى هدمه(٢١١) وكثرت الديارات الخاصة بالنساء ومنها دير الراهبات بحارة زويلة بالقاهرة ودير البنات بحارة الروم ثم كنيسة المغيثة بحارة الروم وغيرها من الكنائس(٢١٢) ، كما أمر المعز ببناء بيعة أبو مرقورة بمصر وكذلك المعلقة بقصر الشمع وكتب سجلا بذلك وأطلق أموالا من بيت المال للانفاق على عمارتها ، كما أشرف على وضع حجر الأساس بنفسه عندما ثار العامة على هذا الأمر ، هذا فضلا عن السماح بتجديد البيع التى تحتاج الى ذلك وكذلك بيع الاسكندرية(٢١٣) .

وفى أفريقية فى عصر الولاة ، وجدنا الوالى الفضل بن روح عند قدومه الى القيروان عام ١٧٧ هـ/٧٩٣ م يسمح لأحد النصارى ببناء كنيسة فى القيروان عرفت بكنيسة قسطاس(٢١٤) ، ومن المعلوم ، أن المسلمين عندما دخلوا الأندلس ، ومع أنهم فتحوها عنوة ، فقد اكتفوا بمشاركة المسيحيين الكنائس ، وعندما انتشـــر الاسلام فى البلد وضاق نصف الكنيسة بالمصلين اشترى عبدالرحمن الداخل النصف الآخر من النصارى وأذن لهم فى بناء كنيسة أخرى بدلا من الكنيسة القديمة التى أصبحت مسجد قرطبة الجامع(٢١٥) ، كما ظلت بيوت النار قائمة حتى القرن الرابع الهجرى بملاحظة ابن حوقل فى شرق العالم الاسلامى(٢١٦) .

---

(٢١١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

(٢١٢)نفسه ، ص ٥٠٩ ، ٥١١ .

(٢١٣) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، صفحات ٩٦ — ٩٧ .

(٢١٤) الرقيق القيروانى : تاريخ أفريقية والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٨ ، صفحات ١٨٤ — ١٨٥ .

(٢١٥) مؤنس : فجر الأندلس ، صفحات ٤٩٢ — ٤٩٣ .

(٢١٦) المسالك والممالك ، ليدن ١٨٧٣ ، ص ١٨٩ .

صفوة القول أن الدولة الاسلامية قد أتاحت لأهل الذمة ومنهم النصارى بناء الكنائس فى المدن الجديدة ، مع أن هذا الأمر غير مسموح به فى خطط المســـلمين مما يؤيد أن هذه الأوامر لم تنفذ وكانت مجرد اطار نظرى ، كما كانت هذه الكنائس تشيد بموافقة الحكام .

واذا كانت الكنائس قد تعرضت فى بعض الأحيان للهدم أو التخريب ، فهذا الأمر مرتبط بحالات فردية سرعان ما كانت تتلاشى آثارها فى فترة لاحقة أو كان انعكاسا لظروف سياسية خارجية ، ففى مصر قد اشتد أسامة بن زيد على قبط مصر وهو الذى عزل من قبل فى خلافة عمر بن عبد العزيز ووصل الأمر الى قدومه فى ولايته الثانية الى هدم الكنائس فى عام ١٠٤ هـ/٧٢٢ م .

لكن مع اعتلاء الخليفة هشام بن عبد الملك عرش الخلافة كتب الى والى مصر بأن يجرى النصارى على عوايدهم وما بأيدهم من العهد(٢١٧) ونفس الشىء حدث مع على بن سليمان عام ١٧٠ ــ ١٧١ هـ وهدمت بعض الكنائس ، فلما ولى موسى بن عيسى أذن للنصـــارى فى بناء ما تهدم من كنائس كما سبق(٣١٧) ، ولأسباب خارجية ، ليس للمسلمين بها شأن ، ففى مصر فى العصـــر الاخشـــيدى قام العامة بتخريب الكنائس عندما ورد الخبر بأن البيزنطيين دخلوا الشام عام ٣٤٩ هـ/٩٦٠ م ، كما أنهم ثاروا وضربوا احدى الكنائس فى مصر القديمة حينما وزد الخبر عام ٤٥٠ هـ/٩٦١ م بأن الامبراطور نقفور غزا جزيرة كريت وضرب ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقا كثيرا ، فضلا عن ذلك أن

(٢١٧) المقريزى : الخطط ، جـ ٢، ص ٤٩٣ .

(٢١٨) نفســـه .

تسلط أهل الذمة وسيطرتهم على النواحى المالية من شأنه أن يجعل العامة يثورون عليهم(٢١٩) .

كذلك تضمنت أوامر الخليفة الحاكم بأمر الله أمرا بهدم الكنائس والبيع والأديرة فى عام ٤٠٣ هـ/١١٠٢ م وصادر أملاكها(٢٢٠) ، ويبدو أن العامة انتهزوا اصدار مثل هذه الأوامر فكانوا يأتون بأمور لم تشاهد من قبل منها ، دخولهم الأديرة ومقابر النصارى(٢٢١) لكن لم يهدم خارج مصر الا كنيسة القيامة المقدسة والتى تعتبر بمثابة مزار للنصارى ، فأصدر الحاكم أمرا الى واليه على بيت المقدس جاء فيه : (أمر الامامة اليك بهدم قمامة ، فاجعل سماءها أرضا وطولها عرضا) فهدمت وان بقيت بعض أجزائها(٢٢٢) ، ويرجع السبب فى هدمها الى أن امبراطور الروم هدم جامعا بالقسطنطينية(٢٢٣) وعلى ما يبدو أن الحاكم لم يهدم غير كنائس وأديرة ملكانية ، مع نجاة كثير من الكنائس والأديرة مثل دير طور سيناء الملكانى الذى استطاع شيخه أن يحفظه بالحيلة(٢٢٤) ، كما أن الحاكم لم يهدم كل الكنائس خوفا على المساجد التى فى بلاد النصارى ، خاصة فى الحبشة والنوبة حيث كان بها أعداد كثيرة من المسلمين(٢٢٥) ، لكن فى خلافة الظاهر تم ترميم كنيسة القيامة نظير ترميم مسجد القسطنطينية(٢٢٦) .

---

(٢١٩) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الاخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٢٤٠ .

(٢٢٠) يحيى بن سعيد ، صفحات ٢٢٩ : ٢٣٢ .

(٢٢١) أبو صالح الأرمنى ، كنائس واديرة مصر ، صفحات ٥٨ ، ١٤٦ .

(٢٢٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٧ ، ص ٢٤ .

(٢٢٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ .

(٢٢٤) يحيى بن سعيد ، صفحات ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

(٢٢٥) المقريزى المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

(٢٢٦) نفســـــه .

ومعنى ذلك أن ما هدم من كنائس ، كان مرتبطا بتصرفات غير المسلمين خارج دار الاسلام كرد فعل لما قاموا به(٢٢٧) أو ما قام به العامة كان بمثابة رد عملى لتحركات الروم فى بلاد الشام وان كان هذا الأمر غير مقبول ويعد استثناءا لأن ما جبلت عليه الأمة الاسلامية من التسامح يمنعها من ارتكاب مثل هذه التجاوزات والحاكم هو فى حد ذاته يعد استثناءا مفردا لما قام به من أعمال فاقت التجاوز فى بعض الأحيان .

وأخيرا ، لنا أن نقرر أن هذا الاطار النظرى الذى وضعه الفقهاء المتأخرون لم يكن هو المعمول به وكان أهل الذمة يتمتعون بكافة الحقوق والحريات التى سوف نقوم بدراستها فى الفصول القادمة لنبين الى أى حد وصل هؤلاء من خلال ما أتيح لهم من حرية الى تكوين مجتمع دينى له حريته وكذا ما أتاحه لهم المسلمون من امتيازات سمحت لهم بالوصول الى أعلى المناصب وكذلك القيام بنشاط كبير فى الحياة الاقتصادية وما ترتب عليه من وضعية اجتماعية مرموقة عاشت فى كنف المسلمين حياة سهلة حتى يصدق فى النهاية ما ذكره بعض الباحثين بأن هذه الشروط الست المستحبة كانت تمثل أمانى مؤلفيها .

---

(٢٢٧) ماجد ، الحاكم بأمر الله ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٠٠ .

الفصل الثانى

الحــــرية
الدينيــة والمدنيــة

الحــرية الدينيــة والمدنيــة

من المعلوم أن القادة الفاتحين قد أتاحوا لأهل الذمة حقوقا وحريات متعددة من خلال العهود التى أبرموها معهم ، فلم يقتصر العهد على أن يكونوا آمنين على أنفسهم وأرواحهم وأموالهم ، بل على ديانتهم ودور عبادتهم ، وبذلك أتيح لأهل الذمة حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، فلم يفرض عليهم شىء من القيود وفتح لهم باب واسع للتسامح كان مغلقا دونهم قبلا حيث كان أهالى الشعوب المفتوحة يرزحون تحت الاضطهاد الدينى الذى ظلوا يعانون منه قبل الاسلام تحت حكم الفرس والروم .

ويرجع الاضطهاد الدينى فى الدولة البيزنطية للخــــلافات المذهبية . وقد مثل ذلك الاضطهاد خير تمثيل فى مصر البيزنطية(١) وقد ضرب هذا الاضطهاد بجذوره منذ القرن الثامن الميلادى حيث بدأ منظما فى حكم الامبراطور ســـبتميوس سفيروس (١٩٣ —

---

(١) انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٢ وما بعدها .

٢١١ م) ثم بلغ الاضطهاد اقصـــــاه مع الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ــ ٣٠٥ م) حتى أطلق على هذا العصر (عصر الشهداء) ، وعلى الرغم من احراز المسيحية أكبر انتصار باعتراف الامبراطور قسطنطين بالمسيحية (٣٢٣ ــ ٣٣٧ م) كأحد الأديان المعترف بها فى الامبراطورية الرومانية وما تلا ذلك من جعل المسيحية الدين الرســـــمى الوحيد مع الامبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ ــ ٣٩٥ م) .

لكن سرعان ما نشأ الخلاف حول طبيعة المسيح ، وتدخل الأباطرة فى هذا الخلاف بداية من الامبراطور قســـطنطين ، ومن اجل ذلك عقدت المجامع الدينية التى نشأ عنها خلاف حاد بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية بسبب تبنى الأباطرة سياسة دينية مناوئة لمعتقدات مسيحيى مصر ، فذهبت كنيسة الاسكندرية الى القول بان للمسيح طبيعة واحدة ، أما كنيسة القسطنطينية ، فقالت بأن للمسيح طبيعتين ومن اجل ذلك دعى المجمع الرابع فى خلقدونية عام ٤٥٢ م بسبب ذلك الاختلاف وأسفر هذا المجمع عن عزل البطرك المصرى . كما اقر مذهب الطبيعتين الذى اعتبر المذهب العام للامبراطورية وعرف بالمذهب الملكى أو الملكانى نســـبة الى الامبراطور (مرقيانوس) الذى دعا الى عقد مجمع خلقدونية وعلى اثر ذلك اتخذ هذا الخلاف فى مصر شكلا قوميا . فقد أدت القرارات الســـــابقة الى حدوث ثورة دينية فى مصر واطلق الثائرون على انفسهم (الأرثوذكسيين) (أى اتباع الديانة الصحيحة) كما عرفوا أيضـــــا باليعاقبة نسبة الى يعقوب البراذعى أسقف مدينة الرها المونوفيزى .

وقد تعرض اليعاقبة لاضطهادات كانت فاتحة لمأساة عظيمة استمرت حتى منتصف القرن السابع الميلادى . وفى خلال حكم

هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) الذى أصدر صورة توفيقية تقضى بأن يمنع الناس من الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعا بأن له ارادة واحدة ، فلم يتقبل أهل مصر هذا المذهب ومما زاد الطين بلة أن قيرس أو المقوقس كما أسماه مؤرخو العرب قد فرض على المصـــــريين احد أمرين اما الدخول فى المذهب الجديد الذى ابتدعه هرقل واما الاضطهاد وكان مسيحيو مصر يشكلون غالبية من اليعاقبة وأقلية من الملكانية . ولذلك أدت هذه الاضطهادات الى هروب البطرك القبطى بنيامين خوفا من الفظائع التى ستحل به وبطائفته من جراء الاضطهاد لفرض المذهب الجديد .

وكان من الطبيعى أن رعايا الدولة البيزنطية فى مصر وغيرها، هم الذين رحبوا بالعرب فاتحين ومن أجل هذا استقبلوا بالرضا والحماسة هؤلاء الفاتحين الذين وعدوهم بالتسامح الدينى ، كما أظهروا رغبتهم فى تسوية مركزهم الدينى(٢) .

وفيما يخص دولة الفرس ، فقد استبد بها الساسانيون فى أواخر أيامها استبدادا اتسم بالفوضى والعنف ، كما استغل حكامها نفوذهم فى اضـــــطهاد الفرق الدينية المخالفة ، وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهة المريرة الذى أحسه الشعب الفارسى نحو هذا الدين المجوسى ، ونحو تلك الدولة التى وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع(٣) .

واذا كانت الدولة الساسانية قد حاولت أن تقوم بحركة احياء للدين المجوسى القديم دين زرادشت فكان هذا الاحياء له نتائجه السيئة فأدى الى تسلل الزرادشت الى حياة الشـــــعب كلها ،

---

(٢) أرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ٥٣ .

(٣) نفسه ، ص ١٧٩ .

تحكموا فيها وسيطروا على جميع ألوان النشاط البشرى فى ايران ، ومعنى ذلك ان أيديهم أطلقت فى الشئون الاقتصـــــادية كما امتد سلطانهم الى النواحى الادارية(٤) .

هذه هى الســــمة المميزة لحال رعايا امبراطوريتى الروم والفرس عشية ظهور الاسلام ولذلك لم يلق المسلمون مقاومة ذات بال من هذه الشعوب التى طالما عانت من اضطهاد وعنت فوجدنا جموع المضطهدين يستقبلون الفاتح العربى بحماس ورضا شديدين فى الأقاليم البيزنطية والفارسية ، أملا فى التخلص مما يعانون منه .

ومع القادة الفاتحين الأوائل الذين حملوا الاسلام شــــرقا وغربا كانت هناك اطلالة للشعوب المقهورة على عالم جديد لبه التسامح وظاهره العفو والرفق شملت مظاهر الاحتكاك الأول فى الدعوة الى الاسلام كما أسلفنا وما حوته عهود الأمان من تطمين هذه الشعوب فى أخص خصوصياتها وهى عقائدهم الخاصة ومن الجدير بالملاحظة أن الدولة الاسلامية قامت أساسا على الدين وكان الدافع للفتوحات هو نشر هذا الدين الذى نزل للناس كافة ، فلم تتشابه بأى حال من الأحوال مع امبراطوريتى الفرس والروم اللتين قامتا من خلال استنادهما على السلطة الزمنية ، ومع ذلك كانت طرائق نشر الاسلام خلوا من أى روح استبدادية أو تعسفية .

وبديهى أن تكون ممارستها الفعلية لا تقف فقط عند حد الاطار النظرى أو بمعنى آخر ، اذا كنا قد ذكرنا عهود الأمان وما حوته من أمان لأهالى البلاد المفتوحة واتاحة الحرية فى ممارسة الشعائر تلك السمة الغالبة فى كافة عهود الأمان والتى لم تقتصر على فترة

---

(٤) حسن محمود ، الاسلام فى آسيا الوسطى ، صفحات ٥ ــ ٦ .

بعينها بل ظلت هذه الروح حتى فى بعض الفترات المتأخرة كما سبق أن بينا ، بل كان لابد أن يتضح ذلك من خلال الممارسة الفعلية فى معاملة غير المسلمين لتطبيق ما جاء فى عهود الأمان وأقصد على وجه التحديد الحرية الدينية .

وتبعا لذلك ، فلابد لنا من دراسة التنظيمات الداخلية للطوائف الدينية التى شملتها دار الاسلام لنقف على التنفيذ الفعلى لعهود الأمان في البلاد المفتوحة ، وكيف عاشت هذه الطوائف تمارس حرياتها وتنظم أحوالها الدينية داخل جماعاتها دونما أى تدخل من الدولة الاسلامية .

وشكل اليهود احدى الطوائف كبيرة العدد التى عاشت فى دار الاسلام وكان حاخام اليهود الأكبر قبل الاسلام(٥) واحدا من عمال الدولة الفارسية ، كما كان فى الشام يسمى ملكا ، وكان يطلق عليه وعلى جميع من تقدمه فى القدس بعد عودهم من السبى البابلى : « الكوهن الأكبر »(٦) ، وكانت مهمة رئيس اليهود وقتذاك جمع الضرائب من رعايا الدولة الفارسية اليهود ومراقبة محلاتهم فى الأسواق والنظر فى جرائمهم وقضائهم ، بمعنى أنه كان لهذا الرئيس الزعامة السياسية والدينية على اليهود آنذاك(٧) .

وحافظت الدولة الاسلامية على وضع اليهود ، عندما أقر الخليفة عمر بن الخطاب تعيين الحاخام الأكبر (البستانى) رئيس جالية اليهود بالعراق رئيسا دينيا لليهود لكل الطائفة اليهودية فى

---

(٥) Goitein, S., Jews and Arabs, their Contact Through the Ages, New York. 1955, P. 120.

(٦) ابن خلدون : المقدمة ، طبعة بيروت ، ص ٢٣٢ .

(٧) عطية القوصي : اليهود في ظل الحضارة الاسلامية ، ١٩٧٧ ، ص ٣٨ .

العالم الاسلامى بعد فتح العراق ، هذا فضلا عن منحه لقب رأس الجالوت على أن يتولى شئون اليهود شرقا وغربا كما كان قبل الاسلام(٨) ، وظل هذا البيت على رئاسة اليهود خلال خلافة على ابن أبى طالب وكذلك خلال عهد الأمويين ومع انتقال مقر الحاخامية من العراق الى فلسطين بعد اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزا لدولتهم(٩) .

وظلت اختصاصات رأس الجالوت فى العصر الاسلامى كما هى من اشرافه على يهود الدولة الاسلامية والنظر فى أحوالهم ، كما كان مسئولا أمام الدولة عن تنظيم دفع الجزية . واذا كان رأس الجالوت هو رئيس اليهود فكان أيضا من اختصاصاته اختيار ممثلين ينوبون عنه فى المراكز الدينية المختلفة واختيار قضاة اليهود (الديانين) وان كان يقوم بنفسه بالنظر فى قضايا اليهود المهمة والحكم فيها(١٠) .

ومع العصر العباسى أصبحت بغداد مقرا للحاخاميات اليهودية الكبرى بعد أن اتخذها العباسيون حاضرة لخلافتهم فقد كان الخليفة العباسى يقوم باختيار وتعيين رأس الجالوت(١١) وباعتباره من أكابر موظفى الدولة لأنه مسئول عن طائفة كبيرة فكان يتم الاحتفاظ بخطاب تعيينه فى ديوان الانشاء ، فضلا عن ذلك استمر البستانى فى الاحتفاظ بنفس اللقب الى جانب الاحتفاظ بلقب (ناسى) أو

---

(٨) Dubnov, S. History of The Jews 11, London. 1968 PP. 229, 230.

(٩) Ibid, P. 330.; Nisim Rejwan, The Jews of Iraq, 1985, P. 81.

(١٠) Ibid, 354.

(١١) Goitein, Op. Cit., P. 120.

أمير ، على أن يكون منصب رأس الجالوت وراثيا فيما بينهم(١٢) ومن هذا نتبين مدى ارتباط حركة الحاخامية اليهودية بمركز الخلافة سواء فى دمشق أو بغداد مما يؤكد أن هذه الطائفة قد نالت اهتمام الخلافة وأن العلاقة بينهما قامت على أساس الاحترام .

كما حظى رأس الجالوت عنان بن داود باكرام الخليفة أبى جعفر المنصور(١٣) كما انعكست هذه الروح التى عومل بها على عامة المسلمين الذين كانوا يحترمونه حتى أن رأس الجالوت دانيال بن حسداى فى خلافة المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) كان ينعت بلقب سيدنا ابن داود ، وكان الخليفة هو الذى مكن له الأمر فيهم وبوأه الرياسة حتى أصبح من الفرائض على المسلمين واليهود على السواء الوقوف اجلالا له اذا كانوا بحضرته ، وكان دانيال يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس ، وكان أثناء امتثاله بين يدى الخليفة يقف أمراء المسلمين وكبارهم بين يديه(١٤) .

وظل هذا الاحترام لشخص رئيس اليهود طوال العصر العباسى ، حتى أن الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى(١٥) قد أفاض فى تلك الوضعية الممتازة التى ارتقى اليها خلال خلافة المستنجد العباسى وعندما زار بغداد حوالى عام ٥٦٤ هـ — ١١٦٨ م . كان يستقبل فى بلاط الخليفة استقبالا حارا ، ويعد له مكان بجوار الخليفة يتبادلان الحديث الذى ينم عن ود واحترام شديدين كما ارتبطت هذه المكانة الممتازة التى حظى بها رئيس الجالوت لدى خلفاء المسلمين فيما خوطب به من ألفاظ التعظيم عند الكتابة اليه ،

---

(١٢) Dubnov, Op. Cit., P. 354.

(١٣) Ibid.

(١٤) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٥ .

(١٥) ترتون ، أهل الذمه فى الاسلام، ص ٣٠ .

وظهرت هذه الألقاب فى بعض النصـــــوص المتأخرة(١٦) ومنها : الرئيس : الأوحد ، الأعز ، الأخص ، شرف الطائفة اليهودية .

وقد سمح مناخ الحرية الذى أتاحه الحكم الاسلامى لليهود بظهور وظيفة دينية أخرى كبرى عند اليهود ، لا تقل خطورتها عن وظيفة رأس الجالوت وقد عرفت هذه الوظيفة بالجاعونية وأطلق على صاحبها الجاعون الذى يعنى بالعبرية الأفخم أو المعظم ، وتم ذلك فى خلافة على بن أبى طالب عندما تم فتح مدينة برون شابور القريبة من بمبادثيا ، فتقدم اليه حاخام أكاديميتها ورحب بالخليفة باسم اليهود فرســمه الخليفة رئيســـا دينيا لأكاديميتى اليهود الرئيسيتين فى سورا وبمبادثيا وأنعم عليه بلقب جاعون(١٧) .

واســـتمرت هذه الوظيفة فى العهد الأموى والتى يختص صاحبها بالنواحى الدينية والقانونية وعليه أن يقوم بالاجابة على كل الأسئلة التى ترد من مختلف البلاد التى يوجد بها اليهود ، كذلك كان عليه أن يرسل نوابا عنه الى البلاد لتفسير أحكام الجاعون وفض المنازعات بين اليهود وجمع تبرعات جماعات اليهود للجاعونية ، كما ظلت قائمة خلال العصر العباسى الاول وأخذت هذه الوظيفة فى الازدهار وحملت لواء نشر التعاليم اليهودية وتصحيحها بين اليهود بفضل ما كفلته الدولة الاسلامية من حرية دينية وحرية الانتقال فى أرجاء العالم الاسلامى وكذا حرية التعليم مما ساعد الجاعونية على القيام بنهضة دينية وأدبية كبرى أتاحت لهم فرصة لتصحيح التلمود وتعاليمه وتطبيقها بشكل صحيح(١٨) .

---

(١٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

(١٧) Dubnov. Op. Cit., P. 360.

(١٨) Goitein, Jews and Arabs, P. 122.

ولذلك استطاعت جاعونية سورا فى العراق أن تعقد الاجتماعات الدينية الدورية كل عام حيث تناقش فيها مسائل شريعة التلمود ، وخلال هذه الاجتماعات كانت تناقش أيضا الاستفسارات الدينية المختلفة التى ترد الى الجاعونية من البلاد المتفرقة ، كما كان يتم اختيار أفراد من المثقفين فى الشرع اليهودى والتلمود لتولى منصب القضاء ويصبحون (ديانيين) ، وكان كل دبان الى جانب قيامه بالنظر فى قضايا يهود ناحيته وفى أمور الزواج والطلاق كان أيضا يرأس المجالس التعليمية(١٩) .

كما اتيح لليهود أيضا فى ظل الدولة الاسلامية وضع تنظيمات دينية فلسفية لليهودية ، ففى خلال عهد المنصور ظهر عنان بن داود الذى دعا الى مذهب جديد ، انشق به على اليهود وعرفت على يديه طائفة (القرائين) أو العنائية ، الذين لم يؤمنوا بغير (المقرا) اى ما يقرأ منه وهى التوراة التى لم يعترفوا بغيرها من كتب اليهود ، كذلك لم يتقيدوا بما جاء فى التلمود(٢٠) ، ولا يعتقد القراءون فى تأويل التوراة واكتفوا بظاهر النصوص وكان أثر المعتزلة والمتكلمة واضحا فى فكر القرائين(٢١) .

وبذلك وقف القراءون موقفا معاديا للربانيين الذين سيطروا على الحياة اليهودية باعتبارهم يشكلون غالبية اليهود ، وقد سمى أصحاب هذه الفرقة بهذا الاسم لاتباعهم تفاسير علماء اليهود فى (المشنا) ، والتلمود وتمسكوا بذلك حتى أصبح هذا الاسم مرتبطا

---

(١٩) Dubnov, Op. Cit., P. 368. 360.

(٢٠) مراد فرج ، القراءون والربانون ، القاهرة ١٩١٨ ، ص ص ٣٦ — ٤١ .

(٢١) على سامى النشار ، الفكر اليهودى وتأثره بالفلسفة الاسلامية ، الاسكندرية ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

بهم(٢٢) . ولذلك وقع الصدام بين الربانيين والمدافع عنهم ضد العنانية(٢٣) وأسفر الصدام عن انتصار الربانيين بفضل سعديا ، وسار مذهبهم على جميع اليهود ، وأصبح رئيس اليهود يختار من طائفة الربانيين وأن تكون لهم السيطرة على اليهود كافة بداية من العصر العباسى الثانى(٢٤) .

أما عن النصارى ، فصار الجاثليق النسطورى رئيس المسيحيين الشرقيين هو الرئيس الأكبر للنصرانية ، وكانت الكنيسة تنتخبه ويصادق الخليفة على هذا الانتخاب ويكتب له عهدا ، كما يكتب لكبار العمال المتصرفين ، ويكون هذا التعيين فى مدينة بغداد وبمقتضى ذلك يكون زعيما للنصارى الذين تضمهم الدولة الاسلامية وما عداهم من الروم والساقبة والملكية ويكون له حق الاشراف على هذه الطوائف وعلى طقوس العبادة وله أن يعاقب من لا يمتثل لحكمه(٢٥) ، وكان على بطرك اليعاقبة أن يذهب الى قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد(٢٦) .

---

(٢٢) المشنا : كتاب عبرى نقهى بمثابة تفسير التوراة لليهود ، تعرف بالتوراة المدونة لاعتقادهم أن الله أوحى الى موسى فى أثناء الأيام الأربعين التى قضاها فى شيبه وامره أن يدخلها شفويا . انظر مراد فرج ص ٣٦ .

(٢٣) على سامى النشار ، الفكر اليهودى، ص ٢١ .

(٢٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٣٨٥ .

(٢٥) متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٧٩ ، ذكر أن الطبيب حنين ابن اسحاق اخرج كتابا فيه صورة المسيح مصلوبا وصور ناس حوله فقال له الطيفورى هؤلاء الذين صلبوا المسيح ، قال نعم فقال له ابصق عليهم فرفض وقال لا لانهم ليسوا الذين صلبوا المسيح انما هى صور فاشتد ذلك على الطيفورى ورفعه الى المتوكل يسأله اباحة الحكم عليه بديانة النصرانية ، فبعث الى الجاثليق والأساقفة وسأله عن ذلك فأوجبوا اللعنة على حنين فلعن سبعين لعنة بحضرة الملا من النصارى وقطع زناره ـــ انظر أبن أبى أصيبعه ، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ٢ ، صفحات ١٤٨ ـــ ١٤٩ .

(٢٦) نفسه . ص ٨٥ .

اما المجوس فكان لهم كاليهود والنصـــارى رئيس يمثلهم فى قصر الخلافة ، وكانت الرياسة فى المجوس وراثية مثل اليهود وكان يلقب رؤساؤهم بلقب الملك ، وهو يقوم أيضا بجمع الضرائب ليقدمها للدولة الاسلامية(٢٧) .

وبذلك تركت لأهل الذمة شئونهم الداخلية ينظمونها بالشكل الذى يريدون واقتصر دور الخلافة الاسلامية على الاشراف فقط .

وفى مصر الاسلامية ، يبدو أن يهود مصر خلال عصر الولاة كانوا خاضعين لأكاديمية فلسطين منذ أن انتقل مركز الثقل للاكاديمية اليهودية مع انتقالهم الى الشام وان كان تاريخهم خلال هذه الفترة يكتنفه الغموض وترجع أقدم الوثائق التى تشير الى يهود الفسطاط الى عام ٧٥٠ م(٢٨) أى مع نهاية الدولة الأموية .

وفى العصر العباسى ومع انتقال مركز الحاخامية الى بغداد ، نجد أن يهود مصر خلال تلك الفترة كانوا خاضعين خضوعا مزدوجا لأكاديمية العراق وأكاديمية فلسطين ، حتى عرف أتباع أكاديمية العراق باليهود العراقيين ، كما عرف اتباع أكاديمية فلسطين باليهود الشاميين ولذلك كان من الطبيعى أن تحصل أكاديمية العراق على عون مادى كبير من اليهود العراقيين الذين استقروا فى مصر بأعداد كبيرة فى تلك الفترة(٢٩) ، لأن الخليفة العباسى كان يعترف لرئيس اليهود بالعراق برئاسته لكل يهود دولة الخلافة ومنها مصر(٣٠)

---

(٢٧) نفسه : ص ٧٨ .

(٢٨) Mann, The Jews in Egypt and Palestine Under the falimids, 1, P. 13.

(٢٩) Ibid, P. 15.

(٣٠) Cohen, Jewish Self-Government in Medieval Egypt, Princeton University Press, 1980. P. 3.

ولأن الطولونيين والاخشيديين كانوا تابعين للخلافة العباسية على الأقل من الناحية الدينية ، فان هذا الأمر انعكس بدوره على أوضاع اليهود المصريين الذين ظلوا تابعين لرأس الجالوت فى العراق(٣١) .

ومع قيام الدولة الفاطمية فى مصر عام ٣٥٨ هـ/٩٦٩ م استقل يهود مصر وفلسطين عن يهود المشرق وكانت لهم رئاسة خاصة وعرف رئيس اليهود الجديد باسم (سرهسايم) أمير الأمراء أو باسم (الناجد) واستقل هذا الرئيس عن رأس الجالوت فى العراق ولذلك كان يقوم بتعيين أحبار اليهود فى حدود ممتلكات الخلافة الفاطمية فى مصر والشام معنى ذلك أن اختصاصات هذه الوظيفة جمعت بين اختصاصات رأس الجالوت السياسية واختصاصات الجاءون الدينية(٣٢) ، لذلك كان تعيين الناجد من قبل الخليفة باعتباره يمثل جماعة اليهود أمام الحكومة ، كما تضمنت اختصاصاته تعيين القضاة فى المقاطعات والنواحى والاشراف على المحاكم اليهودية ، كما سمحت هذه الوظيفة لصاحبها أن يرأس جماعات اليهود فى مصر وان كان اختياره دائما من جماعة الربانيين(٣٣) ، وكان ناجد الفسطاط يمثل السلطة العليا فى القاهرة والفسطاط وكان على حبر الاسكندرية وبقية رؤساء الجماعة اليهودية قبول قراراته(٣٤) ، وبديهى أن تكون اقامة الفاطميين لمنصب الناجد فى اطار سياستهم المضادة للعباسيين(٣٥) .

---

(٣١) قاسم عبده قاسم ، اليهود فى مصر ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٤٠ .

(٣٢) Mann, Op. Cit., 1, P. 394.

(٣٣) Ibid, PP. 255, 256.

(٣٤) Cohen, Op. Cit., PP. 4 — 5.

(٣٥) Mann, Op. Cit., PP. 204 — 206.

أما الاقباط فمع بداية الفتح على يد عمرو بن العاص فلم يتم فقط تنفيذ شروط معاهدة الأمان واقامة حرية العبادة للأقباط ، لكن ايضا تم لم شعث الكنيسة المصرية من خلال اعادته للبطرك بنيامين الى كرسيه بكنسية الاسكندرية بعد ان ظل مبعدا عنه مدة ثلاثة عشر عاما هاربا من اضطهاد الروم ، ولما كان موضعه غير معلوم كتب عمرو الى جميع أقاليم مصر كتابا قال فيه : (الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمنا مطمئنا ، ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته(٣٦) كما احسن عمرو استقبال رهبان وادى النطرون ومنحهم امانا لأنفسهم واديارهم(٣٧) .

كما تأكدت شروط الصلح من خلال تلك الحرية الدينية التى تمتع بها الاقباط ، وهو أن يكف المسلمون عن اخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا فى أمورهم اى تدخل(٣٨) . ولذا وجدنا عمرو بن العاص يعطى بنيامين بعد رجوعه الحرية فى الاشراف على الكنائس ورعاية أحوال الأقباط مما ادى الى رجوع كثير من المصريين الى مذهبهم الأرثوذكسى الذى اجبروا على تركه خلال اضطهادات الامبراطور هرقل ، كما عاد كثير من الذين اختفوا قبلا خوفا من البيزنطيين .

وان كان عمرو حريصا على عدم التدخل فى شئونهم ومع ذلك كان اهتمامه بأمرهم كبيرا فسمح لهم ببناء الكنائس كما بينا من قبل وخير شاهد على التزام عمرو بمعاملة الاقباط معاملة طيبة

---

(٣٦) ساويرس ، سير الاباء البطاركة ، صفحات ٢٣١ — ٢٣٢ .
(٣٧) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٥٦ .
(٣٨) بتلر ، فتح العرب لمصر ، تعريب فريد ابو حديد ، القاهرة ١٩٢٣ ، صفحات ٢٣٤ — ٢٣٥ .

شهادة احد المعاصـــرين من الأقباط هو حنا النقيوسى(٣٩) وان هاجمه فى جانب فقد أنصفه أيضا فى جانب آخر قال : (قد تشدد فى جباية الضرائب التى وقع عليها الاتفاق ولكنه لم يضع يده فى شىء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئا من النهب أو الغصب ، بل انه حفظ الكنائس وحماها الى آخر حياته) .

وهذه الشهادة تقف دليلا على أن العرب الفاتحين قد نفذوا شروط الصلح الخاصة بالجباية ولم يشتطوا فيها وان كانوا حريصين على الالتزام بتحصيلها ، فانهم أيضا أعطوا الأقباط الحرية التامة فى ممارسة شعائرهم الدينيةولم يتعرضوا بالتدخل فى أمورهم ، كما ترك للأقباط مطلق الحرية فى التنظيمات الخاصة بهم ، فان كان لوالى مصر الحق فى الاشراف على انتخاب البطاركة بوصفه يمثل الخليفة فى مصر وأعلى سلطة سياسية فى الولاية ، وكان على البطرك والأساقفة أن يأتوا من مقرهم بالاسكندرية الى الفسطاط لمقابلة الوالى بعد انتخاب البطرك(٤٠) ، فيبدو أن هذه الزيارة كانت مجرد مسائل شكلية بدليل انه لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا فى انتخاب أو تعيين أحد البطاركة الا اذا طلب منه النصـــــارى ذلك(٤١) .

كذلك حظى الأقباط اليعاقبة بعطف الولاة باعتبار أنهم كانوا يمثلون غالبية أهل مصر ، وهذا بدوره أدى الى استرداد اليعاقبة عدد من الكنائس والأديرة التى كانت بيد الملكانيين كما تم اجتذاب كثير من الملكانيين الى مذهبهم(٤٢) . كما حظى الملكانيون ببعض

---

(٣٩) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٢٣٦ .
(٤٠) ساويرس : سير الآباء البطاركة ، ص ٢٣٠ .
(٤١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٦ .
(٤٢) ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، صفحات ٤٥ — ٤٦ .

الحرية فى أوقات معينة ، ففى خلال خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ — ٦٤ هـ/ ٦٨٠ — ٦٨٤ م) استطاع أحد اتباع الملكانية فى مصر أن يتسلط على الاسكندرية ومريوط وكلما يليها والزم اليعاقبة بالانفاق على الاسطول(٤٣) ، كما تأثرت مصر بالأحوال السياسية للخلافة الأموية ، ففى خلافة هشام بن عبد الملك نتيجة للاتفاق الذى تم بينه وبين الدولة البيزنطية أمر الوالى عبيد الله بن الحبحاب أن يسلم الملكانية كنائسهم التى كانت بيد اليعاقبة ، ومعلوم أن هذا لم يقتصر على مصر بل لابد أنه كان له أصداء فى بعض الولايات كما قام بتنصيب بطرك منهم لأول مرة منذ الفتح(٤٤) كما كان لنجاح البطرك الملكانى فى مصر من تطبيب جارية هارون الرشيد أن صدر منشور بأن يتسلم الكنائس الملكية التى غلب عليها اليعاقبة(٤٥) .

أما فى مصر التى بدأت مع الطولونيين خطواتها نحو الاستقلال عن الخلافة العباسية ، فلم تختلف أحوال الذمة فيها عن بقية العالم الاسلامى حيث استغل أهل الذمة دائما التسامح الذى حصلوا عليه ، فقد ذكر المؤرخون أن أحمد بن طولون فرض على البطرك ميخائيل الغرامات الكبيرة فلم يستطع دفعها فحبسه ولم يطلقه الا بعد أن توسط لديه الكاتبان المسيحيان يوحنا وابراهيم ابنا موسى بشرط أن يدفع غرامة قدرها عشرون الف دينار مما جعل البطرك يفرض ضريبة على النصارى وباع كنيسة بقرب حصن بابليون وأملاكا أخرى من أملاك الكنيسة لليهود ومع ذلك لم يستطع أن يجمع المبلغ كله فزج به فى السجن حيث ظل به ولم يطلق سراحه الا فى عهد خمارويه(٤٦).

---

(٤٣) المصدر السابق ، صفحات ٥ — ٦ .
(٤٤) ابن البطريق ، المصدر السابق .
(٤٥) ابن ابى اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ج ٤ ، ص ٨٢ .
(٤٦) Mann, The Jews, 1. PP. 14 — 15.

ويستبعد أن يكون هذا الاجراء يتخذ سمة الاضطهاد الدينى وانما كان هذا الاجراء ماليا(٤٧) ، لأن ابن طولون كان فى حاجة كبيرة الى المال لاعداد حملة له الى الشام وقيام أحد الأســـــاقفة الحانقين على البطرك ميخائيل لأنه كان قد عزله عن منصبه باخباره بأن البطرك يملك ثروة كبيرة مما جعله يطلب من هذه الأموال(٤٨) .

كما ان أحمد بن طولون أظهر من البداية ميولا طيبة تجاه القبط مع بداية حكمه سواء باعفاء رهبان دير القصير من الجزية(٤٩) أو تبرعه بمبلغ ثلاثين الف دينار لمن أصابهم الحريق بالحى المجاور لكنيسة مريم العذراء وكانت غالبيتهم من النصارى وذلك عندما ذهب الى دمشق وفى صحبته كاتبه الواسطى وابو زرعة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقى(٥٠) ، كذلك وضحت ســــــياسته منذ البداية مع المصريين من خلال رغبته فى تخفيف عبء الضرائب عن كاهلهم التى استحدثها ابن المدبر(٥١) .

كما تمتعوا فى العصر الاخشيدى بالحرية الدينية والطمأنينة بسبب السياسة التى اتبعها الاخشيد التى كانت تقوم على أن طوائف الرعية على قدم المساواة ويتضح هذا الاتجاه من الكتاب الذى بعثه الى الامبراطور البيزنطى وجاء فيه : (وسياستنا لهذه الممالك قريبها وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله علينا واحسانه الينا ومعونته لنا وتوفيقه ايانا كما كتبت الينا وصح عندك من حسن

---

(٤٧) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ٤٦ .

(٤٨) Mann Op. Cit.

(٤٩) البلوى ، سيرة احمد بن طولون ، ص ٧٣ .

(٥٠) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٦٣ ، جـ ٢ ، صفحات ١٣ — ١٤ .

(٥١) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٥ .

السيرة وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ويوسعها الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة)(٥٢) .

ومع قيام الدولة الفاطمية فى مصر ، فمع أن الخليفة المعز (٣٤١ — ٣٦٥ هـ/٩٥٢ — ٩٧٥ م) ، لم يتعصب لطائفة من القبط على أخرى ، غير أن نفوذ الملكانية بدأ يزداد فى عهد العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ/٩٧٥ — ٩٩٦ م) بسبب زواجه من نصرانية على المذهب الملكانى ، بحيث أنه عين أخويها فى أعلى مناصب الكنيسة ، فعين أريستس بطريركا على بيت المقدس وارسانيوس بطريركا على القاهرة ومصر ، فاستبدت هذه الطائفة بالأرثوذكس(٥٣) وربما كانت وطأة الخليفة الحاكم بأمر الله شديدة على الملكانية بسبب الحرب الشديدة بين الفاطميين والروم أو لرغبته فى أبعاد الظن بمحاباة هذه الطائفة بسبب قرابة أخته ست الملك ابنة السيدة النصرانية .

وتضمنت تصرفات الحاكم تجاه أهل الذمة بعض النواهى ، فمنع النصارى من تقديم النبيذ فى قرابينهم ، على أن يقدموا بدلا منه ماء قد نقع فيه زبيبا أو عود الكرم ، ثم أمر النصارى بألا يظهروا صليبا أو يدقوا ناقوسا ، ونزعت الصلبان والنواقيس ، كما أمر أن تمحى الصلبان المرسومة على أيدى الناس وعلى سواعدهم(٥٤) كما منع سفر الأساقفة المصريين الى النوبة والحبشة أو حتى مكاتبة ملوكها(٥٥) وتبالغ المصادر النصرانية فيما ذكرته من تصرفات

---

(٥٢) القلقشندى ، صبح ، جـ ٧ ، ص ٥٤ .
(٥٣) يحيى بن سعيد الانطاكى ، صفحات ١٦٤ — ١٦٥ .
(٥٤) نفسه ، ص ٢٠٠ .
(٥٥) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٩٥ .

الخليفة الحاكم ، وأنه قام بتعذيب النصارى بقصد تحويلهم الى الاسلام ، وهذه الكتب كان قصدها أن تظهر الأقباط بمظهر الشهداء(٥٦) . لكن ما ينفى عن الحاكم قصده تحويلهم الى الاسلام ، هو بقاء القبط فى دواوينه وقصره محتفظين بديانتهم ويمنحون الألقاب مثل المسلمين(٥٧) .

وعندما أصدر اوامره بلبس الغيار كما ذكرنا فقد خيرهم بينه وبين الاسلام ، أو الهجرة ، كما نقلت الينا هذه الكتب أيضا روايات غير واضحة عن اضطهاد الحاكم لرؤساء الملكانية واليعقوبية ، فتذكر أن أرسانيوس بطرك القبط الملكانى قد قتل سرا ، أما فيما يتعلق بزخاريوس أحد بطاركة اليعاقبة فيذكر أن اعتقاله لم يكن بغرض تحويله الى الاسلام وانما كنتيجة لتحريض احد الأساقفة الذى اراد ان ينال احدى الاسقفيات كان البطرك رفضها له فوشى به الى الخليفة الحاكم(٥٨) .

ومن الملاحظ أن اليهود كانوا فى بداية عهد الحاكم بعيدين عن اضطهاده ويتضح من وثائق الجنيزة رضا اليهود عن الاصلاحات التى قام بها ، حتى أن هذه الوثائق تمتدحه بسبب هذه الاصلاحات ، كما لم تدمر معابد اليهود فى بداية عهد الحاكم حيث كانوا يجتمعون فى معابدهم العظيمة فى الفسطاط للاحتفال(٥٩) وان أسلم كثير منهم ولم يمسهم بسوء(٦٠) .

---

(٥٦) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ٣٢١ .

(٥٧) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠١ .

(٥٨) يحيى بن سعيد : ص ١٩٧ ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(٥٩) Mann, The Jews, 1, P. 33 — 36.

(٦٠) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٨٢ ، ج ١ ، ص ٥١ .

ومع ذلك فقد رجع الحاكم فى آخر سنى حكمه عن هذه السياسة الشديدة تجاه أهل الذمة ، كما سمح لكل الذين اعتنقوا الاسلام مضطرين بالعودة الى دينهم على أن يلتزموا بلبس الغيار ، حتى ارتد منهم فى يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودى الى دينهم(٦١) ، كذلك أصدر سجلا فى عام ٤١١ هـ/١٠٧٠ م يطمئن فيه أهل الذمة بحمايته لهم ماداموا ملتزمين بأوامره وهذا الأمان أطلق لأهل الذمة حرية الشعائر ، كما منحهم عهدا جديدا كفل لهم فيه الأمان والحرية وهذا نصه(٦٢) : (هذا كتاب عبد الله ووليه المنصور أبى على ، الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، ابن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين ، لجماعة النصارى بمصر ، عندما أنهو اليه الخوف الذى لحقهم ، والجزع الذى نالهم فأقلتهم ، واستذراءهم بظل الدولة ، وتحرمهم بحضور الحضرة ، بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليه بتوخيه لهم ذمة الاسلام وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث تصفو لهم موارد الطمانينة ، وتضفو عليهم ملابس السكون والدعة واجابتهم الى ما سـألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب ، فأنتم جميعا آمنون بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين وأمان أمير المؤمنين على ابن أبى طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام الله عليهم ، هذا على نفوسـكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم وما تحويه أيديكم ، أمانا صريحا ثابتا ، وعقدا صحيحا باقيا فثقوا به واسكنوا اليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ، ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول اليكم بحضرة يد الا كانت زواجر أمير

---

(٦١) يحيى بن سعيد : ص ٢٣٢ .

(٦٢) نفس المصدر : صفحات ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

المؤمنين مقصرة من باعه ، وعظيم انكاره مضيقا فيه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح واصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومدنه وسيلة الثواء فى كنف دولته واياه يستشهد على ما أمضاه من أمانة لكم ، وعهده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شهيدا وليقرر فى أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم ان شاء الله) .

وهذا الأمان يعد تراجعا صريحا عما أصدره الحاكم بأمر الله من أوامر وقيود قبل ذلك ، ومع أن هذا الأمر ارتبط بشخصية الحاكم المتغيرة ونزواته الكثيرة حتى أن بعض المؤرخين قد اعتبروا رجوع الحاكم عن شدته مع أهل الذمة دليلا على خروجه عن الاسلام لسماحه لمن أسلم من أهل الذمة بالارتداد ، فانه ربما كان مدفوعا الى ذلك بسبب تذمر الممالك النصرانية المحيطة ببلاده من تصرفه تجاه أهل الذمة ، حتى أن ملك الحبشة كان يراسل ملك النوبة بشأن قبط مصر كذلك قد يكون تراجعه لخوفه من أن تساء معاملة المسلمين فى البلاد النصرانية(٦٣) .

وفى عهد الخليفة الظاهر صدر أمر فى عام ٤١٨هـ/١٠٢٧م يسمح لمن اعتنق الاسلام كرها أيام الحاكم بالعودة الى دينه ، فعاد الكثير منهم الى اليهودية والمسيحية(٦٤) كما عومل أهل الذمة معاملة طيبة فى عهد المستنصر استمرارا لعهد الخليفة الظاهر ، فكان البطرك القبطى اذا تولى سلطته الدينية استقبله الخليفة استقبالا

---

(٦٣) ماجد : الحاكم بأمر الله ، صفحات ١٠٤ ــ ١٠٥ .
(٦٤) ابو المحاسن : النجوم ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

رسميا فى قصره ، وما وصفه المؤرخون(٦٥) حول هذا الاستقبال يقف دليلا على ما ناله النصارى على وجه الخصوص من رعاية واهتمام . كما حظيت الأديرة النائية برعاية الخلفاء الفاطميين ، فعندما خرج الخليفة الآمر فى رحلة صيد بالقرب من دير تهيا بالقرب من الجيزة منح رهبانه المال(٦٦) كذلك هناك سجلات حفظت فى دير سانت كاترين مرسلة من قبل الخلفاء والوزراء الأقوياء لتأمين الرهبان فى هذا الدير على أرواحهم وممتلكاتهم ، مثل تلك السجلات المرسلة من الخليفة الحافظ ، كما كان الخليفة الفائز متسامحا مع اليهود والنصارى ويؤكد ذلك المنشور الذى أصدره الى رجاله فى شبه جزيرة سيناء يأمرهم فيه بأن يشملوا الرهبان بالرعاية والعناية(٧٦) ، كما يتضح حرص الخلفاء الفاطميين على رعاية أهل الذمة من انفاق الأموال الطائلة على نفقة وصيانة المؤسسات الدينية اليهودية والمسيحية ، فكانت أكاديمية فلسطين تتسلم منحة ثابتة للنفقة عليها وصيانتها من قبل الخلفاء(٦٨) ، كذلك منح بيت تعليم الدين اليهودى بالقاهرة منحة ثابتة(٦٩) .

---

(٦٥) ارسل الخليفة الى بطرك القبط عشارى (مركب من مراكب الخليفة) لينقله الى مصر وعند وصوله انتظره خلق كثير ودخل الى القاهرة من باب البحر فى موكب رسمى احاط به القراء ، وحينما وصل الى القصر خرج اليه صاحب الرسالة قال له : أمير المؤمنين يرد عليك السلام فسكع البطرك اى انحنى الى قرب الأرض ثم دخل وحده على الخليفة الذى عنده امه واخته جالستان وبين أيديهم طيب كثير فضمخوه به وقالوا له : (بارك علينا وعلى قصرنا ، فبارك عليهم ودعا لهم ثم خرج وبعد ذلك سار موكبه الى دار الوزير ولقى الترحيب ذاته ورجع فى صحبة والى القاهرة ، ماجد ، المستنصر ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٩ .

(٦٦) أبو صالح الأرمنى . كنائس وأديرة مصر صفحات ٨٧ — ٨٨ .

(٦٧) احمد عيسى ، مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين ، فصله من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٤ .

(٦٨) Mann The Jews, 1, P. 38.

(٦٩) عطية القوصي : اليهود في ظل الحضارة الاسلامية ، ص ١٣ .

وفى بلاد المغرب خلال عصر الولاة ، يبدو أن أهل الذمة تمتعوا بالحرية الدينية كما تمتع بها اخوانهم فى الشرق الاسلامى فلم تشر المصادر الا لمشاركة النصارى فى الحياة الاقتصادية فى سوق القيروان وهذا يعكس ما ناله هؤلاء النصـــــارى على وجه الخصوص من حريات وكان هناك سوق لليهود بالمدينة ايضا(٧٠) .

وفى الأندلس وضع الاسلام عند دخوله شبه الجزيرة الأيبيرية حدا للاضطهادات المسيحية ، فقد كثرت اضطهادات القوط لليهود الأسبان لارغامهم على التنصر ، فاضطر الكثيرون من اليهود الى الهجرة وتظاهر بعضهم باعتناق المسيحية ، ولذلك وقف اليهود الى جانب المسلمين أثناء الفتح يدلونهم على عورات القوط(٧١) فيبدو أنهم كانوا على اتصال بأبناء ملتهم فى شمال افريقيا وعلى علم بأخبار الحرية الدينية التى كانوا يتمتعون بها فى ظل الحكم الاسلامى وقد لقى اليهود تسامحا مطلقا من العرب سواء خلال عصر الولاة أو بعده ، فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم يمارسون شعائرهم بحرية تـــــامة ..

كذلك لم تكن المسيحية فى أسبانيا قبل دخول الاسلام ثابتة الأركان ، ولم يكن كل النصارى آمنين على أنفسهم ولا راضين عن الوضع الذى كانت فيه الكنيســـة . كما ترك المسلمون النصـــارى الذين ارادوا أن يظلوا على دينهم احرارا يفعلون ما يشاءون وان انتقل الى أمراء قرطبة الاشراف الأعلى على شئون الكنيسة وجعلوا قرطبة المركز الفعلى للنصرانية فى الأندلس ، واحتفظوا لأنفسهم بحق تعيين المطران او اقرار انتخابه ، وكذلك الموافقة على الدعوة

---

(٧٠) ابو العرب : طبقات علماء افريقية ، تونس ١٩٦٨ ، صفحات ١٣٠ ، ١٣١

(٧١) مؤنس : فجر الأندلس ، صفحات ٤٨٧ ــ ٥٢٢ ــ ٥٣٧ .

لعقد المجامع الدينية . وهذا يدل على استقلال الكنيسة الأسبانية في العصر الاسلامي عن التبعية لكنيسة روما(٧٢) .

والاشراف على الكنيسه الأسبانية لا يعنى التدخل في شئون النصارى ، فقد سار في نفس الاتجاه الذي ساد في المشرق الاسلامي من كونه اشرافا شكليا ولذلك أبقى مسلمو الأندلس على كل المؤسسات ذات الصبغة الرسمية دون أن يمسوها بأذى تطبيقا لما تحدد في عهود الأمان ولم يقف الأمر عند العاصمة قرطبة التي اتيحت لها الحرية في تنظيم جماعاتها بل تعداه الى المدن والأرياف الأخرى حيث كانت الجماعات النصرانية ملتفة حول أساقفتها وقساوستها ورعاتها ولم يتدخل المسلمون في شيء من هذا . فظلت الكنائس تؤدي دورها الديني والاجتماعي(٧٣) ومن دلائل هذه الحرية الدينية أن الدولة الاسلامية في الأندلس وقفت موقف الحياد الكامل من مذاهب النصارى وآرائهم .

وثمة تغيير واحد في النظام العام للنصرانية في الأندلس وهو انتقال مركز الثقل من طليطلة الى قرطبة ولم ينقل المسلمون كرسي المطرانية الكبرى من طليطلة الى قرطبة بل تركوه مراعاة لمشاعر النصارى ثم حرصوا على أن يكون المطران قريبا منهم في قرطبة(٧٣) .

الحرية المدنية :

لم تكن الحرية الدينية هي السمة المميزة للدولة الاسلامية بل ارتبطت بها أيضا الحرية المدنية وسبق أن ذكرنا أن عهود الأمان

---

(٧٢) نفسه ، ص ٤٩٦ .
(٧٣) نفسه ، صفحات ٥٠٠ — ٥٠١ .
(٧٤) نفسه ، ص ٤٩٥ .

قد تعهدت بحماية أموال وممتلكات أهل الذمة فضلا عن انفسهم وأرواحهم ، ومن المعلوم أنهم قد اطمئنوا على ممتلكاتهم الخاصة وممتلكات كنائسهم . كما كان لأهل الذمة شئونهم الداخلية التى تركت لهم لكى ينظموها كما يشاءون وهى الخاصة بقضـــــاياهم ومنازعاتهم الخاصة ، وتشير وثائق الجنيزة فى مصر الفاطمية الى وجود محاكم خاصة لليهود تنظر فى قضاياهم(٧٥) ومنها : وثيقة ورد فيها اسم افرايم بن شماريا المقيم فى الفسطاط يعلن فيها أمام محكمة حكومية قوله : نحن يهود لنا محاكمنا الخاصة(٧٦) كما كان يهود الموصل يعاقبون مرؤسيهم وكان لهم سجن خاص يسجن فيه اليهود(٧٧) . ونفس الشىء يقال عن يهود الأندلس الذين كانت لهم قوانينهم الخاصة ولهم الحق فى تطبيق ما تصدره محاكمهم من عقوبات(٧٨) .

كما كان للنصارى محاكمهم الكنسية وكان رؤســـــاء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة فيما يخص مسائل الميراث والمنازعات(٧٩) . وكان لنصارى الأندلس قاض خاص نصـــرانى يفصل فى منازعاتهم يعرف بقاضى العجم(٨٠) ، وعلى أى حال فان بعض فقهاء الاسلام أجازوا تقليد الذمى القضاء بين أهل دينه وهذا وان كان العرف جاريا فهو تقليد زعامة ورئاسة وليس تقليد حكم وقضاء وانما يلزمهم حكمه لالتزامهم له ولزومه لهم وان امتنعوا عن تحاكمهم اليه لم يجبروا عليه(٨١) . لذلك اذا لجأ أهل الذمة الى

---

(٧٥) Goitein. Med. Soc., 11, P. 337.

(٧٦) عطية القوصى ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٧٧) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٧٨) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٥٣٦ .

(٧٩) متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٩٣ .

(٨٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٥ .

(٨١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٦٥ .

حاكم مسلم فى الفصل فى خصوماتهم تعين عليهم أن ينفذوا حكمه وفقا للشريعة الاسلامية .. قال تعالى : **« فان جاءوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين »**(٨٢) .

لذلك وجدنا بعض القضاة فى مصر الاسلامية يقضون بين أهل الذمة ، فالقاضى خير بن نعيم الحضرمى (١٢٠ — ١٢٨ هـ/ ٧٣٨ — ٧٤٦ م) كان يقضى بين المسلمين فى المسجد ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر ليقضى بين النصارى ، كما انه يجعل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود ويتحقق من العدالة(٨٣) . كذلك نجد القاضى محمد بن مســـروق الكندى (١٧٧ — ١٨٤ هـ / ٧٩٣ — ٨٠٠ م) يسمح للنصارى المتخاصمين فى الدخول فى المسجد مثل المسلمين ليقضى بينهم(٨٤) ، وان كان القضاة يجعلون للقضاء بين النصارى يوما فى منازلهم(٨٥) كما كان ينظر فى قضـــايا اليهود من خلال القضـــاء الاسلامى اذا ما كان النزاع بين مسلم ويهودى(٨٦) .

ويبدو عدل الاسلام وسماحته فى الأحكام بين المسلم والذمى فى القصاص والديات فقد تساوى الذمى مع المسلم ، فان سرق الذمى يلزمه ما يلزم السارق المسلم من عقاب(٨٧) . كما أن دية الذمى مثل دية المسلم فيذكر عن النبى عليه الصـــلاة والسلام أن

---

(٨٢) سورة المائدة : آية ٤٢ .
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٥١ .
(٨٤) نفسه : ص ٣٩١ .
(٨٥) نفسه : ص ٣٩٠ .
(٨٦) Goitien, Med. Soc., 111, P. 329
(٨٧) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٩١ .

رجلا من المسلمين قتل رجلا من أهل الكتاب فقال الرسول : ((**أنا أحق من وفى بذمته ثم أمر بقتل المسلم**))(٨٨) .

وثمة نقطة أخيرة متعلقة بمواريث أهل الذمة ، فلم يكن هناك تشريع بين النصارى للمواريث وقد جعلهم عمر بن العزيز يتوارثون كما يتوارث أهل الاسلام(٨٩) ، كما أن النصرانى لم يكن يرث اليهودى ولا اليهودى يرث النصرانى وكلاهما لا يرثان المسلم ويتضح لنا ذلك مما أورده هلال الصابى(٩٠) ، فقد ذكر أن الخليفة المعتضد أرسل الى القاضى يوسف بن يعقوب يسأله عن مواريث أهل الذمة فكتب له ما ورد من الرسول عليه الصلاة والسلام ، (**لا يتوارث أهل ملتين**) وأن السنة جرت بأن أهل كل ملة يورثون من هو لهم اذ لم يكن له وارث من ذوى رحمه ، كما أصدر الخليفة المقتدر فى عام ٣١١ هـ/٩٢٣ م كتابا فى المواريث أمر فيه بأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثا على أهل ملته ، على حين أن تركة المسلم ترد الى بيت المال(٩١) .

خلاصة القول أن المسلمين قد أتاحوا للشعوب المفتوحة الحرية الدينية التى طالما افتقدوها ، فقد جاء الاسلام فى وقت ليس فيه حرية دينية فى كل اجزاء المعمورة بل اضطهاد وتعذيب ، ثم شملت سماحة الاسلام كل هذه الأرجاء مما دعا كثيرا من أهل الذمة الى الدخول فى الاسلام ، فقد حصلوا على امتيازات كثيرة وهم ذمة فما بالهم لو دخلوا الاسلام .

---

(٨٨) يحيى ابن آدم : الخراج ، صفحات ٧٣ — ٧٤ .
(٨٩) ابو المحاسن : النجوم ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ .
(٩٠) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٤٧ .
(٩١) الجهشيارى ، الوزراء ، ص ٢٢٨ .

الفصـــل الثـــالث

وظائف غير المســلمين
فــى
الجهــاز الادارى

وظائف غير المسلمين فى الجهاز الادارى

من الثابت أن العرب أبقوا على النظم الادارية التى وجدت فى البلاد المفتوحة كما كانت فى كل اقليم قبل الاسلام ، وظلت هذه الدواوين تحرر بلغة الادارة السابقة قبل الاسلام فيما يخص ديوان المال والجباية(١) ، وتغير مفهوم النظام المالى من نظام هدفه الابتزاز الى نظام يبغى اقرار العدالة ، فتركوا أهلها يعملون فى الدواوين واكتفى العرب بالاشراف على الادارة بوجه عام .

وبدأت هذه السياسة منذ خلافة عمر بن الخطاب فوجدنا أن الولاة فى صدر الاسلام قد استخدموا كتابا منهم ، فكان لأبى موسى الأشعرى والى البصرة فى هذه الفترة ، كاتبا نصرانيا(٢) . وظل استخدام أهل الذمة لدى الخلفاء الامويين ، فاستخدم معاوية بن أبى سفيان النصارى فى مصالح الدولة ، فعهد الى سرجون بن

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤٤ . كان العمل يجرى فى ايران والعراق بالفارسية وفى الشام باليونانية وفى مصر بالقبطية .

(٢) ابن الاخوة ، معالم القربة فى احكام الحسبة ، ص ٩٣ .

منصور الرومى بخراج دمشق ثم الى ابنه منصور بن سرجون ، كذلك كان كاتبه على خراج حمص(٣) نصرانى هو (ابن أوثال) وكان لهذا الكاتب قصرا بحمص يعرف به .

كذلك سار الولاة الأمويون على نفس السياسة فى استخدام اهل الذمة ، فكان ولاة خراسان يستكتبون النصارى ، مثل عبد الرحمن بن زياد والى البصرة زمن معاوية الذى اتخذ كاتبا يدعى اسطفانوس(٤) كما استخدم عبد الله والى البصرة (٥٥ — ٦٤ هـ / ٧٦٥ — ٦٨٤ م) الدهاقين فى جباية الخراج(٥) واستخدم خالد بن عبد الله القسرى والى العراق فى خلافة هشام بن عبد الملك المجوس فى أعمال الخراج والادارة(٦) . معنى ذلك أن استخدام أهل الذمة كان على نطاق واسع حيث استخدمهم المسلمون ، وتأكدت عقود الأمان مع أهل الذمة من خلال منحهم حقوقا لم تكن متوفرة لهم من قبل الى جانب اعطائهم الفرصة فى الاستمرار فى العمل فى الدواوين .

ففى ايران استخدم المسلمون الايرانيين غير المسلمين فى وظائف الدولة خصوصا فى الوظائف المالية حيث وجدت طبقة الدهاقين التى عرفت بمهارتها المالية ونبوغها فى أعمال الخراج ومعرفتها بالأسرار الادارية ، وقد استخدم افراد هذه الطبقة فى عهد الراشدين وكثر استخدامهم فى عهد بنى أمية(٧) كما كان الاحتفاظ بالتنظيمات الادارية فى البلاد المفتوحة قد ساعد

---

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٦ ، ص ١٨٣ .
(٤) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٩
(٥) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٩ .
(٦) فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣١٩ .
(٧) حسن احمد محمود ، الاسلام فى آسيا الوسطى ، ص ٣٢ .

على ضرورة الاعتماد على أهلها فى ايران وغيرها اذ ظلت سجلات الضرائب فى ايران تكتب بالفارسية ما يقرب من خمسين عاما(٨) .

ونفس الشىء حدث فى الهند ، فسار المسلمون على نفس السياسة من استخدام أهالى البلاد المفتوحة فى العمل فى الادارة فضلا عن الابقاء على النظم الادارية ولذلك استخدموا جماعات المعاهدين فى وظائف الدولة(٩) .

وكانت حكومة الفسطاط تستخدم أهل الذمة فى ادارة البلاد ، فكان هناك كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ومصر السفلى ، فى ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (٦٥ — ٨٦ هـ/٦٨٥ — ٧٠٥م) وتشير المصادر(١٠) الى وجود كاتبين على المذهب الأرثوذكسى اثناسيوس واسحاق ، كما كان رؤساء المالية قبطا طوال العصر الأموى هذا فضلا عن استخدامهم حكاما للأقاليم ، فكان والى الصعيد فى نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان قبطيا اسمه بطرس ولكنه اعتنق الاسلام بعد ذلك كما كان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوفانس(١١) وكذلك كان جباة الضرائب فى هذه الفترة من أهل الذمة(١٢) .

وفى خلافة عبد الملك بن مروان تم تعريب الدواوين عام ٧٦ هـ /٦٩٥ م بقصد تحويل أجهزة الدولة الادارية الى العربية ،

---

(٨) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٩٥ .
(٩) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .
(١٠) ساويرس ، سير الاباء البطاركة ، ص ١٢ ، سيدة كاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٤ .
(١١) نفس المصدر ، ص ٥٢ .
(١٢) سيدة كاشف ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

وتقوية الحكم العربى فى البلاد المفتوحة فضلا عن ايجاد توافق فى الادارات المختلفة التابعة للدولة ، فنقل ديوان الشام الى العربية فى عهده على يد سليمان بن سعد والى الأردن ، فقال سرجون كاتب الخليفة لأبناء جلدته من الروم : (اطلبوا العيش فى غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم)(١٣) ، كما نقل الحجاج ديوان العراق من الفارسية الى العربية(١٤) ، لكن ديوان مصر تأخر نقله الى أوائل عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م(١٥) .

وكان على أهل الذمة أن يتعلموا العربية ليظلوا فى عملهم بالدواوين ، فأدى ذلك الى اقبالهم على تعلمها مع توفر رجال الادارة من المسلمين والموالى(١٦) ولذلك استمر وجودهم فى الدواوين وفى غيرها ، فقد استخدم الخليفة سليمان بن عبد الملك ٩٦ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٧١٨ م كاتبا نصرانيا من أهل لد يقال له البطريق بن النكا ، الذى قام بالاشراف على بناء مدينة الرملة وبناء المسجد الجامع بها وحفر الآبار(١٧) كذلك وجدنا المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٨ — ٩٦١ م) بعد أن شاد قصره المعروف بالجعفرى ، صير النفقة عليه الى دليل بن يعقوب النصرانى(١٨) كذلك كان عبد الله ابن سمعون كتوما فى ديوان الخليفة المكتفى المتوفى عام ٢٧٥ هـ/ ٩٠٨ م كما أصبح بنان النصرانى كاتبا لصاحب الديوان وأسند الى مالك بن الوليد النصرانى ديوان الدار ، كما أسند ديوان الخاصة

---

(١٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤٤ .
(١٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٩٦ .
(١٥) المقريزى الخطط ، جـ ١ ص ٩٨ ، تم ذلك فى عام ٨٧هـ/٧٠٦ م .
(١٦) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .
(١٧) المصدر السابق .
(١٨) ياقوت ، معجم البلدان . بيروت ١٩٨٢ ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

وبيت المال الى نصرانيين(١٩) كما استخدم بختيار كاتبا نصرانيا هو العلاء صاعد بن ثابت النصراني فى استخراج الأموال والاستيفاء على الأموال من غير وزارة(٢٠) .

ومع استقلال مصر عن الخلافة العباسية بقيام الدولة الطولونية عام ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ — ٩٠٥ م ، لم تتغير بسياسة هذه الدولة مع أهل الذمة الذين ظلوا يعملون فى الدواوين ولم يفقدوا امتيازاتهم القديمة ، لأنه كانت لاتزال بأيديهم الخبرات لاسيما المالية ، بل ان هناك ما يدل على انهم تسربوا الى حياة أحمد ابن طولون الخاصة وكان منهم من خدم فى قصره(٢١) وكان لخمارويه كاتبا نصرانيا هو اسحق بن نصر العبادى ، وبعد سقوط الدولة الطولونية وعودة مصر للدولة العباسية تولى عيسى النوشرى من قبل الخليفة المكتفى . الا أن الأحوال كانت مضطربة آنذاك وقامت ثورة الخلنجى الذى استطاع أن يجمع الأنصار حوله للقضاء على الطولونيين وانتهى بهروب عيسى النوشرى الى الجيزة ودخول الخلنجى الفسطاط ، وفى تلك الفترة عين لنفسه وزيرا نصرانيا وقلده الخراج(٢٢) وبعد هزيمة الخلنجى ، عاد عيسى النوشرى فاستخدم بعض الموظفين النصارى(٢٣) .

أما الدولة الاخشيدية التى لم تعمر طويلاً هى الأخرى وبقيت فى الحكم حوالى أربعة وثلاثين عاما (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ — ٩٦٩ م) فقد تمتع أهل الذمة بالعمل فى الدواوين ، كما أنه لم

---

(١٩) عريب بن سعد ، صلة تاريخ الطبرى ، لندن ١٨٩٧ ، ج ٧ ، ص ١٢٥ .

(٢٠) مسكويه ، تجارب الامم ، القاهرة ١٩١٥ ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ .

(٢١) البلوى ، سيرة احمد بن طولون ، دمشق ١٩٣٩ ، ص ١٦١ ، سيدة كاشف ، مصر فى عهد الطولونيين والاخشيديين ، ص ١٠٤ .

(٢٢) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٩١ .

(٢٣) نفســـه .

يتغير شيء عما كان معمولا به في الدولة الطولونية ، ولذلك عمل أهل الذمة في الوظائف المالية والادارية ومنهم يعقوب بن كلس الذي عرف وقتئذ بقيامه بالأعمال التجارية لكافور الاخشيدي وعلى ما يبدو أنه استطاع أن يسيطر على النواحي المالية(٢٤) .

ومع قيام الدولة الفاطمية عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م شكل أهل الذمة من يهود ونصارى غالبية في العمل في الدواوين ، فقد انعكست السياسة العامة التي اتبعها الفاطميون من تسامح زائد على هذه الناحية ، ووضح ذلك مع قدوم الخليفة المعز لدين الله الى مصر عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م الذي قام بتقليد يعقوب بن كلس الذي أعلن اسلامه أيام كافور الاخشيدي ثم هرب الى المغرب عند المعز ، الخراج ووجوه الأموال جميعها والحسبة والسواحل والأعشار والجوالي والأحباس وجميع ما يضاف الى ذلك وما يطوى في سائر الأعمال واشترك معه في ذلك (عسلوج بن الحسن) اليهودي(٢٥) .

وفي خلافة العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ — ٩٩٦ م) حظي أهل الذمة بنفوذ كبير اذ لم يقتصر وجودهم فقط على دواوين المالية انما تعداه الى جميع فروع الادارة ، نتيجة لزواجه من نصرانية هي أم سيدة الملك ، وتولي عيسى بن نسطورس ضبط الأمور وكذلك منشا اليهودي بعد ابن كلس ، فأساء أهل الذمة الى المسلمين ، فعمد ابن نسطورس الى تولية النصارى وصرف الكتاب

---

(٢٤) يحيى بن سعيد ، صفحات ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢٥) المقريزي ، اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، نشره محمد جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ، صفحات ١٩٦ — ١٩٧

Fischel, Jews in the economic and political life of Medieaval Islam, London, 1968, P. 54.

والمتصرفين من المسلمين ، منتهزا تسامح العزيز فقام المسلمون بلفت نظر الخليفة الى تلك الحظوة التى وصل اليها أهل الذمة من خلال شكوى قدمت اليه فى احد مواكبه من امرأة قد صنعوها من الجريد والبسوها ازارا كتب فيها (والذى أعز اليهود بمنشـــا والنصارى بابن نسطورس وأذل المسلمين بك الا قضيت أمرى)(٢٦) وهذه تعد اشارة صريحة لمدى تسلط أهل الذمة فى دولة العزيز ، كما عبرت عن السخط العام لدى مسلمى مصر ، فتحرى الخليفة العزيز فى هذا الأمر وعندما تأكد له حقيقة ما جاء فى الشكوى ، أمر بالقاء القبض على ابن نسطورس ومنشا وصودرا ، كما تم طرد أهل الذمة من الدواوين ، لكن عادت الأمور الى عهدها الســـابق وعفى الخليفة العزيز عن ابن نسطورس بفضل شـــفاعة ابنته ست الملك ، فأعاده الى عمله على شريطة أن يرد الدواوين والأعمال الى الكتاب المسلمين والتعويل عليهم فى شئون البلاد(٢٧) وانعكس تسلط أهل الذمة ولاسيما اليهود فيما وصفهم به أحد الشـعراء المصريين اسمه ابن البواب بقوله :

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عنـــدهم   ومنهم المستشار والملك

ومعنى ذلك أن تسلط أهل الذمة على الادارة الفاطمية قد عاد الى سابق عهده واستمر أهل الذمة فى العمل بالدواوين أيام الخليفة الحاكم بأمر الله فظل المنصور بن سوردين النصرانى يتولى

---

(٢٦) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٥ ، Ibid, P. 64.

(٢٧) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

ديوان الانشاء فى عهد الحاكم(٢٨) ، ورغم رغبته فى طرحهم من الدواوين ، لكنه لم يستطع ذلك بسبب أن القبط كانوا يشكلون ثلث سكان مصر ولأن أغلبهم كان على دراية تامة بشئون الادارة(٢٩) .

وفى خلافة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) استخدم أهل الذمة فى الوظائف العليا وسيطروا تبعا لذلك على دواوين الدولة حتى أصبح مقدمو المملكة والناظرون فى دواوينها وتدبير أمور حكمها نصارى ، فضلا عن مشاركة اليهود فى السيطرة على سياسة الدولة(٣٠) . ومما ساعد على ذلك تحكم أم المستنصر فى الحكم ، حتى أصبحت الدولة فى يد أعوانها لاسيما من أهل الذمة ، فقد وقعت تحت نفوذ أبى سعد ابراهيم بن سهل بن هارون الذى عرف بالتسترى وهو من أسرة يهودية أسلمت منذ عهد الحاكم واشتغلت بالتجارة والصيرفة مع تجار العراق ، وقد استخدمه الظاهر فى شراء ما يحتاج اليه من تحف ومن بين ما باع له جارية استولدها المستنصر(٣١) ، فكان أمرا طبيعيا أن تجعل أبا سعد فى خدمتها ، ولما كانت هى المسيطرة من دون المستنصر الذى تولى الخلافة صغيرا دون الثمانى سنوات ، فكان لها ديوان خاص(٣٢) ينظم شئونها وكان التسترى هو رئيس ديوانها والمهيمن الفعلى على أحوال دولة المستنصر بفضل هذا التعيين ، فاستكثر من بنى جلدته ومكنهم من السيطرة على الادارة الفاطمية ، فعين أخاه أبا نصر رئيسا لديوان الخليفة ، وابنه أمرة الدواوين ، وعظم شأنه الى

---

(٢٨) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ٩٦ .

(٢٩) ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ٥٨ .

(٣٠) ابن ميسر ، اخبار مصر ، القاهرة ، ١٩٨١ : صفحات ٢ ، ٥ .

(٣١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٥ Fischel, the Jews, P. 71.

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢ .

أن صار ناظرا فى جميع أمور الدولة ، فلا يخرج عما يرسمه فى شئون الدولة(٣٣) .

وتفاقمت الأحوال فى الدولة الفاطمية خلال هذه الفترة نتيجة لتدخل أم المستنصر وحاشيتها مما أدى الى حدوث كوارث الخلافة من مجاعات وفتن الجند وسيطرة رجال أقوياء ، مما جعل المستنصر يقوم باستدعاء بدر الأرمنى لانقاذ الخلافة وكان مجيئه عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م وتقلده الوزارة أمرا أسعد النصارى على وجه الخصوص، فعلى الرغم من اعتناقه الاسلام كان على علاقة طيبة مع الأقباط فنظم أحوالهم(٣٤) ولذلك التحق بخدمته كثير من القبط من الكتاب ، أسند اليهم عديدا من الوظائف الهامة فى مختلف الدواوين المالية والادارية ، ومن هؤلاء راهب يعمل مهندسا اسمه حنا قام بالاشراف على الأعمال الهندسية(٣٥) لاعادة بناء أسوار القاهرة على يد بدر ، كما أشرف على ثلاثة من أبواب القاهرة ، باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة ، كما اتصل بخدمته أيضا أبو المليح مينا بن زكريا الملقب بمماتى ، الذى ظل يترقى حتى وصل الى وظيفة مستوفى الديوان والتى تعتبر احدى وظائف الادارة العليا وقتذاك(٣٦) .

على انه بتولى المقتدر فى أواخر القرن الثالث الهجرى عاد (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ / ١٠٩٤ — ١١٠٦ م) كثر عدد الكتاب النصارى ومنهم الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الأسقف كاتب سره والموقع عنه فى الأموال ومتولى ديوان المجلس والنظر فى جميع دواوين

---

(٣٣) Mann, the Jews 1, P. 219.

(٣٤) ابن الصيرفى الاشارة الى من نال الوزارة ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٥٦ .

(٣٥) أبو صالح الأرمنى ، كنائس وأديرة مصر ، ص ٦٥ .

(٣٦) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٢٧ .

الاستيفاء على جميع اعمال الدولة(٣٧) ، وتولى بعده نصرانى أيضا هو أبو البركات يوحنا ديوان التحقيق لفترة طويلة(٣٨) . كذلك عمل اليهود فى وظائف اخرى فى الادارة الفاطمية ومنهم (أبو المنجا ابن شعيا) الذى عمل مهندسا وأشرف على حفر القناة التى عرفت باسم (خليج ابن المنجا) عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م (٣٩) .

وفى خلافة الآمر (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ / ١١٠١ — ١١٣٠ م) أنشأ الأفضل شاهنشاه ديوانا جديدا أطلق عليه اسم (ديوان التحقيق) اختص بمراجعة سائر أعمال دواوين الدولة(٤٠) وأشرف على هذا الديوان الهام أحد اليهود ويدعى (ابن كوجك)(٤١) كما عمل بديوان المجلس الذى كان له الاشراف على أموال الخليفة عدد من النصارى(٤٢) كذلك عملوا فى ديوان الانشاء ومنهم أبو الدم اليهودى(٤٣) . كما استخدم الآمر يهوديا يقال له أبو يعقوب ابراهيم على المكوس وكذلك أبو نجاح بن الراهب الذى تمكن من السيطرة على الدواوين وبالغ فى محاباة النصارى وصادر عامة المصريين بكافة طوائفهم وطبقاتهم ، حتى أمر الخليفة الآمر بأن لا يولى أهل الذمة شىء من أعمال المسلمين وأصدر سجلا بهذا الأمر(٤٤) .

---

(٣٧) ساويرس ، سير الآباء البطاركة ، ص ٨ .
(٣٨) ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٤٣ .
(٣٩) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٧١ — ٧٢ ، Fischel, the Jews, P. 88.
(٤٠) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٤٠١ .
(٤١) ابن ميسر ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٧٧ ، Op Cit.,
(٤٢) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٩٦ .
(٤٣) Fischel, the Jews, P. 88.
(٤٤) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٣٦٩ .

واستمر نفوذ أهل الذمة فى خلافة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ/ ١١٣٠ — ١١٤٩ م) وكان غالبيتهم من العاملين فى مسح الأراضى الخراجية وتحصيل الضرائب من الأقباط ويوضح ذلك ما وقع من خلاف بين أحد هؤلاء الكتاب النصارى وصاحب معدية رفض أن يتنازل عن أجر تعدية الكاتب النصرانى ، فأخذ الرجل لجام بغلته فاثبت عليه أرضا مساحتها عشــرون فدانا باسم أرض اللجام ، فطلب من الرجل بعد ذلك دفع خراج الأرض وضرب وباع معديته لتأدية المال المقرر عليه ، ثم رفع شكواه للخليفة الحافظ الذى أمر بتصفح السجلات الخاصة بالناحية فلم يجد أرضا باسم أرض اللجام التى اثبتها الكاتب على الرجل ، فأمر باحضار النصرانى وسمر فى موكب وطيف به فى سائر الاعمال (٤٥) ، كما استخدم الحافظ كاتبا نصرانيا يدعى (الأخرم) وولاه أمرة الدواوين فأعاد كتاب النصارى بعد أن صرفهم الحافظ فترة . ويذكر المقريزى(٤٦) أنهم عادوا أوفر مما كانوا عليه ، تفاخروا وتظاهروا بالملابس وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسومة بالسروج وضــــايقوا المســــلمين فى أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية ، وصــــودر بعض كتاب المسلمين مما يبين مدى سيطرة النصارى وســــطوتهم آنئذ .

وبديهى أن يستمر نفوذ أهل الذمة فى فترة احتضار الخلافة مع الخلفاء الثلاثة الأواخر الظافر والفائز والعاضد .

---

(٤٥) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، صفحات ٤٠٥ — ٤٠٦ .
(٤٦) انظر نفس المصدر ..
انظر نفس المصدر .

وتطالعنا أوراق الجنيزة(٤٧) عن حقيقة التحاق اليهود بخدمة الدولة ، فتذكر احدى الوثائق التى ترجع للقرن السادس الهجرى — الثانى عشر الميلادى ـ لكاتب مسجون مصرا على براءته وان ما فعله كان من اجل اليهود جميعا من قرائين وربانيين ، وأنه عمل في خدمة الحكومة ، لكى يكسب عيشه ويفعل خيرا لأخوته فى العقيدة فى نفس الوقت .

ويتضح من وثيقة أخرى أن العداوة والتنافس قد وقع بين اليهود والنصارى من أجل الفوز بوظائف الدولة ، ويقرر كاتب الوثيقة التى هى عبارة عن خطاب مرسل الى يهود القسطنطينية إنه طرد من وظيفته بسعاية أحد النصارى المقربين الى الوزير(٤٨) .

ومما يؤكد ذلك التنافس أن بعد تولية ابى البركات يوحنا ديوان التحقيق للأفضل شاهنشاه عمل على اقصاء كل اليهود من وظائفهم الحكومية وتعرضوا للاضطهاد طيلة الثلاث عشرة عاما التى حكم خلالها(٤٩) وهذا دليل على حدة الصراع بين اليهود والنصارى للفوز بمناصب الدولة مستغلين فى ذلك روح التسامح العامة التي أتيحت لهم مما كان له عظيم الأثر .

وبوجه عام كان المتصرفون من نصارى ويهود يقسمون اليمين

---

(٤٧) Mann, the Jews 1, P. 219.

(٤٨) Ibid, P. 229.

(٤٩) ابو صالح الأرمنى ، كنائس واديرة مصر ، ص ٥٠ .

شأنهم شأن المسلمين ، بدأ ذلك مع الفضل بن الربيع وزير الرشيد الذى استحدث هذا الايمان من قبل أحد كتابه(٥٠) .

وفى الأندلس طبق المسلمون سياستهم المعهودة فى الابقاء على النظم الادارية الموجودة كما حدث فى بلاد المشرق ، وكان هذا من منطلق احترامهم للعهود التى أبرموها مع أهالى البلاد المفتوحة ، ولذلك اقام المسلمون فى الأندلس رئيسا لأهل الذمة ولقبوه بت (قومس الأندلس) وجعلوه مسئولا أمامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى واحاطوه بما يليق به من الاحترام ولم يظهر هذا اللقب الا مع عبد الرحمن الداخل وان كانت الوظيفة قديمة والجديد هو اللقب الذى سوف يستمر بعد ذلك(٥١) . كما أن العرب تركوا للنصارى حق اختيار حكامهم وتنظيم أمورهم من خلال الانتخاب على خلاف ما كان عليه الحال أيام القوط ، واكتفى العرب بحق اختيار القومس الأعلى ، كما ظلت ألقاب الموظفين اللاتينية كما هى والتى عرفت منذ أيام الرومان والقوط(٥٢) .

وسبق أن ذكرنا أن اليهود اضطهدوا فى عصر القوط حتى أنهم عاونوا المسلمين عند الفتح ، لذلك كان طبيعيا أن يكافئ المسلمون اليهود ويجعلوهم حرسا لما يفتحونه من البلاد الى جانب الحرس الاسلامى(٥٣) واستطاع اليهود بعد ذلك أن يصلوا الى أرفع المناصب ومنهم حسيداى بن اسحق بن عزرا بن شتروط الذى

---

(٥٠) متز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٠٦ .
(٥١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٥٨ .
(٥٢) مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٦١ .
(٥٣) ابن الخطيب ، الاحاطة فى اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، المجلد الأول ، القاهرة د.ت ، ص ١٠٥ .

كان له الاشراف على الخزانة العامة ، كما حظى برعاية الخليفة الناصر(٥٤) .

خلاصة القول أن أهل الذمة استفادوا الى حد كبير من روح التسامح التى شملت العالم الاسلامى شرقه وغربه ووصلوا الى أعلى المناصب الادارية وانفردوا فى بعض الأحيان بهذه الوظائف نتيجة لمعرفتهم السابقة بالخبرة الادارية والمالية .

لكن هذا النفوذ الذى حازه أهل الذمة ، جعلهم فى كثير من الأحيان يسيطرون بشكل حاد مما ألجأ الحكام المسلمين الى اصدار بعض الأوامر التى تحد من اشتطاطهم ، وهذه الأوامر لم يقصد بها ابعادهم بشكل نهائى بقدر ما كان الغرض منها كبح جماحهم بسبب ازدياد تعسفهم الذى لم يكن الرد الطبيعى لما تمتعوا به من تسامح عوملوا به من قبل الحكام المسلمين شرقا وغربا على مر الزمن .

ويرجع اصدار هذه الأوامر الى الخليفة عمر بن الخطاب الذى نهى عن استكتاب الذميين ، وسبب هذا المنع هو تعامل أهل الذمة بالربا ، مما يعرض مصالح الدولة للظلم والمحاباة ، ولما كان عمر ينشد العدل دائما لذلك كان حرصه على سلامة الدولة فقد نهى أبا موسى الأشعرى عن استخدام كاتب نصرانى(٥٥) ، وكان لعمر عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق فعرض عليه أن يدخل الاسلام حتى يستعين به فى بعض أمور المسلمين ، فأبى فأعتقه ثم أطلقه وقال له : اذهب حيث شئت(٥٦) . والمقصود بهذا النهى عدم اشراف أهل الذمة على الشئون الخاصة بالمسلمين لأنهم ظلوا على

---

(٥٤) عطية القوصى ، اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، ص ١١٢ .
(٥٥) ابن الاخوة ، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٩٣ .
(٥٦) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

حالهم فى البلاد المفتوحة مع الاشراف على جباية الخراج كما هو معلوم ، ومع التعريب بدأ المسلمون يشغلون وظائف الدواوين مع استمرار أهل الذمة على شريطة ان يتعلموا العربية .

لذلك نجد الخليفة التقى، عمر بن عبد العزيز يأمر عماله بعدم استخدام أهل الذمة فأرسل اليهم كتابا ذكر فيه : (فلا أعلم كاتبا ولا عاملا فى شىء من عملك على غير دين الاسلام الا عزلته واستنزلت مكانه رجلا مسلما)(٥٧) كما نزع عمر قبط مصر عن كورها واستعمل المسلمين عليها(٥٨) ، لكن هذا القرار لم يستمر بعد وفاته وظل الأقباط فى مصر يشغلون كثيرا من مناصب الدولة وظل بعض الموازيت(٥٩) يختارون من القبط حتى كان فى عام ١٧١ هـ / ٧٨٧ م مازوت قبطى على احدى قرى مصر(٦٠) .

كما كتب أبو جعفر المنصور الى كافة الأعمال بصرف من بها من أهل الذمة بعد أن شكا اليه المسلمون برفع المظالم عنهم وعدم تمكين النصارى من ظلمهم وعسفهم فى ضياعهم ومنعهم من انتهاك دمائهم ، لأن المنصور كان قد أمر الذميين بقبض موجودات بنى أمية فاتخذوا من ذلك سلما للعسف والجور بالمسلمين جميعا(٦١) وقد عادت شوكتهم أيام الخليفة المهدى وكان منهم نصرانى بالبصرة فتظلم الناس من معاملته الى المهدى فأحضر وكلاء النصرانى

---

(٥٧) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٦٥ .

(٥٨) الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٦٩ .

(٥٩) موازيت معناها رؤساء أو مشايخ القرى ، انظر سيدة كاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، ص ٣٨

(٦٠) نفس المرجع ، ص ١٩٤ .

(٦١) ابن القيم الجوزية ، احكام اهل الذمة ، صفحات ٢١٤ — ٢١٥ .

واستدل بالبينة فشهدوا على النصرانى بظلم الناس وتعدى مناهج الحق(٦٢) .

كذلك لم يكن صرف المتوكل لأهل الذمة عن الأعمال الا لأنهم قد غلبوا على المسلمين وتجاوزوا الحد فى التعسف بهم وكان منهم من يخدم أم الخليفة وأهله وأقاربه وكانت الأعمال لكبارهم وعامتها فى أيديهم ، فضلا عن ذلك فحاولوا أن يشوهوا صورة المسلمين أمام الخليفة وانهم بين مفرط وخاسر من خلال مؤامرة أعدوها حوت أسماء كثير من المسلمين وبعض أسماء من أهل الذمة بغرض التمويه لينالوا من سمعة المسلمين(٦٣) .

وفى عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م أمر الخليفة المتوكل بألا يستعان بأهل الذمة فى الدواوين وأعمال السلطان التى تجرى أحكامهم فيها على المسلمين(٦٤) كما أمر بعزل القبط عن مقياس النيل فى مصر(٦٥) .

على انه بتولى المقتدر فى أواخر القرن الثالث الهجرى عاد العمال الذميون الى ما كان بأيديهم ورجعوا الى سالف قوتهم وبدأ نجمهم يعلو مرة ثانية وغلبوا على الكتاب فأمر الخليفة المقتدر عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م بعزل كتاب النصارى وعمالهم والا يستعان بأحد من أهل الذمة ، وضمن كتابه الى نوابه (ممن نكث وطغى وخالف أمير المؤمنين وسعى فى افساد دولته ، عاجله أمير المؤمنين بسطوته

---

(٦٢) نفس المصدر .

(٦٣) نفس المصدر : ص ٢١٩ .

(٦٤) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٩ ، صفحات ١٧١ — ١٧٢ .

(٦٥) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

كذلك الا يســـــتخدم احد من اليهود والنصـــارى الا فى الطب والجهبذة(٦٦) .

كذلك كثرت الشـــكاية من اهل الذمة حتى زمان الخليفة الراضى ، فكتب اليه الشعراء فى ذلك(٦٧) وكذا فى ايام الآمر وامتدت أيدى النصـــارى وبســـطوا سلطانهم وتفننوا فى اذى المسلمين(٦٨) وهذا يبين أن هذه الأوامر تأتى متزامنة مع تسلط اهل الذمة ولكنها لا تسرى لفترة طويلة بدليل علو نجمهم مرة ثانية فى فترات قريبة وكان لسيطرة أهل الذمة على الشئون المالية ، يجعل العامة يثورون على وضعيتهم كنوع من الاحتجاج(٦٩) .

وفى خلافة الحاكم فى مصر اشتملت اوامره الكثيرة تجاه اهل الذمة على ابعاد النصارى بوجه خاص عن الخدمة فى الدواوين ، وذكر بعض المؤرخين انه قد تجاوز فى صرف هؤلاء الكتاب بقطع أيدي بعضهم ، ولكن على ما يبدو ان هذا التصرف يرجع اساسا الى تعسف هؤلاء الكتاب بدليل انه فى نفس الوقت صرف احد الكتاب المسلمين وهو صالح بن على الروذبادى وقرر مكانه ابن عبدون النصرانى فوقع وكتب عن الحاكم بعض القرارات الخاصة بهم ومنها أمره بهدم كنيسة القيامة(٧٠) ، ومما يؤكد أن هذا المنع لم يستمر أن الأقباط ظلوا يعملون فى الدواوين متمتعين بكل امتيازاتهم السابقة ولعل السبب فى ذلك هو مطالبة الكتاميين الذين أتوا من المغرب مع المعز على دفع اليهود والنصارى من مناصب الدولة(٧١)

---

(٦٦) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .
(٦٧) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٤ ، ص ٢٩٨ .
(٦٨) ابن القيم الجوزية ، احكام اهل الذمة ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
(٦٩) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٢٤ .
(٧٠) المقريزى الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .
(٧١) ماجد ، الحاكم بامر الله ، ص ٣٠ .

وهذا الموقف الذى وقفه الكتاميون من اليهود خاصة قد حدث فى أعقاب اشتباك وقع بينهما بعد تشـــييع جنازة أحد علماء اليهود فاشتبك الكتاميون مع اليهود العائدين من الجنازة مما أدى الى حبسهم وتجمع اليهود عند قصر الخليفة طالبين العفو منه فقررت المحكمة براءة اليهود بعد محاكمتهم فأطلق سراحهم فنظموا مسيرة شكر الى بلاط الخليفة ثم توجهوا الى معبدهم وصلوا صــــلاة الشكر(٧٢) .

كما امر الخليفة الحافظ بعدم استخدام النصارى فى الدواوين وهذا الاجراء كان بسبب ما ارتكبوه من اخطاء اساءت الى سمعة الخلافة ، لكن سرعان ما عادوا مرة ثانية وغلبوا على العمل فى الادارة الفاطمية(٧٣) .

خلاصة القول ان الدولة الاســــلامية قد اتاحت لأهل الذمة الفرصة فى المشاركة فى العمل فى الدواوين من منطلق الاستفادة من خبراتهم فى البداية وظل نفوذ أهل الذمة شرقا وغربا حتى زاد عسفهم مما الجأ بعض الخلفاء الى اصـــــدار بعض الأوامر لمنع استخدام أهل الذمة .

ولم يقتصر دور أهل الذمة على العمل فى الادارة الاسلامية بل تعداه الى الالتحاق بالجيش الاسلامى ، ومعلوم ان الذمى كان يدفع الجزية مقابل حمايته لأنه لم يشترك فى الدفاع ، لأن معنى ذلك الحصول على العطاء الذى يعد حقا لكل مسلم ، لكن بمضى الزمن سمح لهم بالاشتراك فى الجيش الاسلامى وربما يكون ذلك مرتبطا بما أسلفناه من مشاركة الذميين للمسلمين فى الدفاع وعدم دفع

---

(٧٢) Mann, the Jews, 1, PP. 31 — 32.

(٧٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠٦ .

الجزية ، ففى مصر خلال عصر الولاه كان ملحقا بالجيش طائفة تسمى المطوعة ، ربما كان أساسها أهل البلاد الذين كانوا فى جيش مصر أثناء الفتح العربى لها ، لكن هؤلاء المطوعة لم يدخلوا فى صلب الجيش ولم يشاركوا اشتراكا فعليا فيه ويغلب على الظن انهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى أوقات الضرورة(٧٤) . ولم يثبت هؤلاء المطوعة فى الديوان وكان عطاؤهم من الصدقات(٧٥) .

كذلك سمح الامويون بتجنيد ابناء البلاد المفتوحة للاشتراك فى المعارك شرقا وغربا ، فاذا كان البربر اشتركوا فى فتح الاندلس فاننا وجدنا الأمويين يشركون أهل البلاد فى اقليم ما وراء النهر فى جيش الغزو حتى ولو كانوا على غير الاسلام ، وبالفعل اشتركت قوات كبيرة منهم فى جيش قتيبة بن مسلم ، فوفد اليه المطوعة من بخارى وكش ونسف وخوارزم ، حتى ان الدولة الأموية جندت نحوا من عشرين ألفا من هؤلاء(٧٦) .

كما تولى أهل الذمة أمرة الجيش الاسلامى فى بعض الأحيان ، مما يؤكد مدى التسامح الذى أعطى لهؤلاء واعطاء الفرصة للوصول الى أرقى المناصب ففى خلال القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى تقلد ديوان جيش المسلمين رجل نصرانى ، فعندما لام الناس الوزير ابن الفرات على ذلك ، دافع عن نفسه بأنه اقتدى بالخلفاء والسابقين الذين ولوا النصارى وظائف الدولة(٧٧) .

---

(٧٤) سيدة كاشف ، مصر فجر الاسلام ، ص ٨٣ .

(٧٥) الكندى ، الولاة والقضاة ، صفحات ٤١٨ — ٤١٩ .

(٧٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٤٠١ ، حسن محمود ، الاسلام فى آسيا الوسطى ، ص ١٢٣ .

(٧٧) هلال الصابى ، تحفة الامراء ، ص ٢٤ ، روفائيل بابو اسحاق ، أحوال نصارى بغداد ، ص ٥٩ .

كما وصل أهل الذمة الى أعلى المناصب وهى الوزارة ، لكن هذا الأمر لم يتم فى الخلافة العباسية الا مؤخرا خلال القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى ، خلال سيطرة البويهيين ، فاتخذ عضد الدولة البويهى (٣٦٦ ـ ٣٧٢ هـ / ٩٧٦ ـ ٩٨٢ م) وزيرا نصرانيا وهو نصر بن هرون واذن له فى عمارة البيع واطلاق الأموال لفقراء النصارى(٧٨) وفى مصر بعد زوال الدولة الطولونية وعودة مصر الى حظيرة الدولة العباسية قام محمد الخلنجى بثورة وحكم الفسطاط من دون الوالى العباسى عيسى النوشرى واتخذ لنفسه وزيرا نصرانيا(٧٩) ، كما تولى الوزارة للأخشيد احد النصارى وهو أبو اليمن قزمان بن مينا(٨٠) .

وفى مصر الفاطمية استطاع اهل الذمة أن يصلوا الى منصب الوزارة ومنهم يعقوب بن كلس اليهودي الذى اسلم ووزر للخليفة العزيز(٨١) ، وبعد وفاته عام ٣٨٠ هـ / ٩٩١ م تولى الوزارة عيسى ابن تسطورس بفضل تدخل زوجة الخليفة العزيز(٨٢) ، وأدى ذلك الى تولية النصارى بكثرة فى عهده ، كما اسلفنا ، فى الدواوين وكان منهم أيضا الولاة ، فكان هناك وال يهودى على بلاد الشام هو منشا بن ابراهيم الفراء(٨٣) كما كان لتولى ابى سعد التسترى ديوان الملكة أم المستنصر اثر فى تولية اليهود بعض المناصب

---

(٧٨) ابن الاثير الكامل ، جـ ٧ ، ص ١٠١ .

(٧٩) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٤٧ .

(٨٠) ساويرس ، سير الاباء البطاركة ، ص ٩٨ .

(٨١) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦ .
Mann, the Jews 1, PP. 19 — 20.

(٨٢) أبو المحاسن ، المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٧٥ .
Fischel, the Jews, P. 84.

(٨٣) Ibid. P. 62.

الهامة ومنهم صدقه بن يوسف الفلاحى الذى أعتنق الاسلام وكان أهله من يهود حلب الذى وزر للمستنصر عام ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م(٨٤).

كذلك استوزر الخليفة الحافظ أرمنيا نصرانيا اسمه بهرام ، وربما جاء ضمن الأرمن الذين أتوا الي مصر مع بدر الجمالي وابنه الأفضل ، وتدرج بهرام في وظائف الدولة الفاطمية ، فكان قائدا فى الجيش ، ثم حاكما على الغربية وكان توليه الوزارة عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م(٨٥) ولكن وجه الخطورة فى دخول بهرام للوزارة أنه كان وزير تفويض ، وقد أجاز فقهاء الاسلام بأنه يجوز أن يتولى وزارة التنفيذ أهل الذمة وان لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم(٨٦) لأن وزير التفويض يتدخل فى أمور خاصة بالاسلام منها القضاء والدعوة ، لكن الخليفة حل ذلك بأن جعل تولية القضاة والدعوة من جانبه .

وفى الأندلس برزت بعض الشخصيات من أهل الذمة ، واستطاع احدهم أن يتولى الوزارة فى عهد حكم بنى زيرى لمنطقة غرناطة وهو الرابى اسماعيل ابن نغرالة اليهودى (٣٩٣ — ٤٠٩ هـ / ٩٩٣ — ١٠٥٠ م) وأصله من مدينة غرناطة التى شكل فيها اليهود غالبية ، وتولى اسماعيل الوزارة والكتابة للملك حبوس ابن زيرى ولابنه الملك باديس بن حبوس ، وبديهى أن ينحاز الى بنى جلدته فاتخذ منهم عمالا ومتصرفين فى الاشغال(٨٧) فضلا

---

(٨٤) ابن ميسر ، اخبار مصر ، ج ٢ ، صفحات ٤ — ٥ .

(٨٥) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(٨٦) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٧ .

(٨٧) ابن عذارى ، البيان ، المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق بروفنسال ، بيروت ١٩٦٧ ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

عن الاستكثار منهم فى وظائف الدولة والالتحاق بالجيش ومساواتهم فى هذا الأمر بالمسلمين(٨٨) . وبعد وفاته تولى ابنه يوسف الوزارة لباديس وأحرز نفس المكانة ، ومما ساعد على علو مكانته ما تميز به من صفات ، فذكر ابن عذارى(٨٩) : (لم يعرف ذل الذمة ولا قذر اليهودية وكان جميل الوجه حاد الذهن ، فأخذ نفسه بالاجتهاد فى الأحوال واستخراج الأموال واستغل اليهود اخوانه على الأعمال فزادت منزلته) .

صفوة القول ان مناخ الحرية الذى عاش فيه أهل الذمة فى دار الاسلام قد هيأ لهم نفوذا وسلطانا لم يتح لهم قبلا فى العهود التى سبقت الاسلام .

---

(٨٨) عطية القوصى ، اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، ص ١١٨ .
(٨٩) المصدر السابق ، ج ٣ ، صفحات ٢٦٤ — ٢٦٥ .

الفصــــل الرابـــع

دور غــير المســلمين في الحيــاة الاقتصــادية

- التجــارة
- الصــيرفة
- الجهبــذة

دور غـــير المســـلمين فى
الحيـــاة الاقتصـــادية

اتاحت الدولة الاسلامية لأهل الذمة المشـــاركة فى الحياة الاقتصادية بما كفلته لهم من حقوق وحريات ، كما ساعدت فترات الازدهار الاقتصادى التى شملت مختلف النواحى فى العصـــر العباسى الأول ، وما تلاه أيضا فى القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى من تالق الذميين فى هذا المجال .

فقد قررت الحكومة الاسلامية مبدأ الحيازة والملكية للفلاحين كافة الذين كانوا محرومين منها ، وقد ارتبط ذلك بفرض ضريبة الخراج التى كانت بالقياس الى الضرائب القديمة خفيفة العبء(1) ، كما وضعت الضوابط التى تحافظ على أرض الذمى مثل المسلم . فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الاضرار بأرض الغير . وقد قال : (**ملعون من ضار مسلما او غيره ملعون**) ، وكتب عمر بن الخطاب الى عبيدة يأمره أن يمنع المسلمين من ظلم أحد من أهل

(1) حسن محمود ، الاسلام فى آسيا الوسطى ، ص ٣٤ .

الذمة(٢) ، بمعنى أنه لا يحل لمسلم أن يتعمد الاضرار لجاره لتغريق أرضه أو لتحريق زرعه فى شىء يحدثه فى أرضه .

كما نهى الخليفة عمر بن الخطاب عن شراء أرض أهل الذمة وعقاراتهم(٣) وهذا الأمر مرتبط بالمحافظة على ملكياتهم بما يتفق وعهود الأمان التى أعطيت للذميين لحماية أراضيهم وما يملكون ، والمصادر تذكر لنا الكثير مما حازوه من أراض وعقارات ، مما يؤكد تمتعهم بجميع الحقوق المدنية التى ســـاعدتهم على الظهور فى المجتمع الاسلامى .

واتضح ايضا تسامح المســـلمين فى التعاون مع أهل الذمة والاستفادة من خبراتهم المختلفة ، وبخاصة فى انشـــاء البحرية الاسلامية ، فقد استعان الأمويون بأقباط مصر فى انشاء ميناء تونس ودار صـــناعتها(٤) عندما أمر الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز والى مصر بارسال الف قبطى بأهله وولده الى أفريقية لانشاء ميناء تونس ، كما سبق أن استخدم معاوية المصريين فى بناء الأسطول السورى فى عكا(٥) .

كما كانت سياسة الرفق التى اتبعتها الدولة الاسلامية ، فيما أصدرته من قرارات ضريبية شملت مختلف أوجه النشاط الاقتصادى قد دفعت هؤلاء الذميين الى المشاركة الفعلية فى الحياة الاقتصادية فالضرائب التى فرضت عليهم من خراج وجزية لم تثقل كاهلهم ، كما أنهم كانوا لا يدفعون ضرائب على مواشيهم من الابل والبقر

---

(٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٠٧ .
(٣) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٣٣ .
(٤) ابن عذارى ، البيان ، جـ ١ ، ص ٤٩ .
(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٢٤ .

والغنم(٦) . كذلك تساوى أهل الذمة العاملين فى استخراج المعادن مع المسلمين فى الضريبة المفروضة عليهم والمقدرة بالخمس(٧) . فضلا عن الضريبة المخففة التى فرضت عليهم لقاء ممارستهم للنشاط التجارى ، فيؤخذ منهم نصف العشر مرة واحدة فى السنة ، ولا يؤخذ من أقل من مائتى درهم شىء(٨) .

وحرص المسلمون على الا يتجاوز العمال الأموال المقررة فى تحصيل هذه الضرائب ، لذلك وجدنا الخليفة عمر بن الخطاب يشمل أهل الذمة بعدله ، فما شكا منهم مظلوم واليا مهما كان قدره الا وانصفه منه يذكر القاضى أبو يوسف(٩) أن زياد بن حدير الأسدى كان والى عمر على عشور العراق والشام ، فمر عليه رجل من بنى تغلب من نصارى العرب ومعه فرس فقومها بعشرين الفا ، فقال : أعطنى الفرس وخذ تسعة عشر الفا أو أمسك الفرس وأعطنى الفا ، فأعطاه ، ثم مر عليه راجعا فى سنته فقال له التغلبى : كلما مررت بك تأخذ منى الفا ، ورجع التغلبى الى عمر وقص عليه قصته فعندما رجع التغلبى الى زياد وجد كتاب عمر قد سبق اليه قائلا فيه : (من مر عليك فأخذت منه صدقة(١٠) ، فلا تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم) . كما تكررت الشكوى من أحد المارين بالتجارة فأنصفه الخليفة(١١) .

---

(٦) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٦٢ .

(٧) نفسه ، ص ٣٣ .

(٨) ابو يوسف ، الخراج ، صفحات ١٤٣ — ١٤٤ .

(٩) نفســــه : ص ١٤٦ .

(١٠) نصارى تغلب ضوعفت عليهم الصدقة لقربهم من العدو ، كما أنهم الوحيدون من اهل الذمة الذين دفعوا ضرائب على مواشيهم . انظر يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٦٢ .

(١١) ابو يوسف ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد ضمن لأهل الذمة ما يدفعونه من ضرائب التجارة من خلال ما يحصلون عليه من كتب من القائمين على تحصيلها تثبت استيدائهم لها(١٢) .

كذلك تضمنت نصائح القاضي أبى يوسف(١٣) للخليفة الرشيد : أن يولى العشور(١٤) قوما من أهل الصلاح والدين ، ويأمرهم أن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به ، فلا يظلموهم ولا يأخذوا منهم أكثر مما يجب وعليهم أن يمتثلوا ما رسمناه لهم ، ثم تفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم ، فان تجاوزوا ما قد أمروا به عزلت وعاقبت وان كانوا قد انتهوا الى ما امروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد احسنت اليهم » وبذلك أراد أبو يوسف أن يرفع الظلم عن المارين من التجار وأن يصلح الجهاز الجمركى .

التجــــارة :

وأتاحت الدولة الاسلامية لأهل الذمة الاشتغال بالتجارة بما أتيح لهم من حرية الانتقال داخل العالم الاسلامى . فقد حوى عهد أهل بعلبك(١٥) : (ولتجارهم أن يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التى صالحنا عليها) وبديهى أن ينسحب هذا على جماعات المعاهدين الذين شملتهم دار الاسلام وشجع على ذلك ما شهدته التجارة من انتعاشة لما قام به خلفاء العصر العباسى الأول من

---

(١٢) نفســـــــه .

(١٣) نفسه ، صفحات ١٤٢ — ١٤٣ .

(١٤) العشور هى الرســـــوم التى تؤخذ على أموال وعروض تجارة أهل الحرب وأهل الذمة المارين بها على ثغور الاسلام وأول من وضعها الخليفة عمر ابن الخطاب . نفسه ، ص ١٤٥ .

(١٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٦ .

اصلاحات فى الحياة الاقتصادية انعكست عليها بشكل مباشر وماحدث أيضا فى القرن الرابع الهجرى من انتعاشة اقتصادية شملت العالم الاسلامى كله ، بسبب وجود كيانات سياسية كبيرة حكمت العالم الاسلامى وأصبحت لها السيادة على البحار ، فقامت الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر والشام واتسعت دولة السامانيين بفضل التوسع التجارى ، كما توسع الغزنويون فى الهند وايضا تم فتح مغاليق التجارة مع بيزنطة(١٦) ، وما أدى ذلك الى ارتياد سفن المسلمين وقوافلهم كل البحار والبلدان(١٧) .

ومن سمات تلك الفترة تنوع الطوائف التى عملت بالتجارة ، فأسهم فيها المسلمون والنصارى واليهود والمجوس والهنود اتباع (بوذا) وغيرهم ، وهم ليسوا متنوعين فحسب بل لا ينفصلون عن بعضهم يسافرون ويعملون جنبا الى جنب ، وكان التجار المسلمون يهبون لمساعدة اخوانهم اليهود إذا مسهم الظلم(١٨) .

وكانت التجارة الكارمية تشكل أحد أوجه النشاط التجارى فى هذه الفترة والتى تنسب الى فئة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل والسلع الأخرى خاصة فى مصر الفاطمية ولذلك كانت حكومة الفاطميين تقوم بحماية تجار الكارم فى البحر الأحمر . وشارك فى هذه التجارة المسلمون واليهود ، بل كانت هناك بينهما مشاركة فى بعض الأحيان . كما أن غالبية التجار اليهود الذين انخرطوا فى تجارة الشرق ، استقر

---

(١٦) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الاسلامى ،الدار البيضاء ١٩٨٠، ج ٢ صفحات ١٣٣ ــ ١٣٤ .

(١٧) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

(١٨) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٥٢ .

منهم أعداد كبيرة زمن الفاطميين فى مصر واليمن وفى الهند نفسها ، فضلا عن أن عددا كبيرا منهم كون ثروات طائلة من تجارة الكارم مثل بنى سهل(١٩) . كذلك عما بها أيضا تجار مغاربة مسلمون ويهود(٢٠) ، وعمل أيضا بعض النصارى فى هذه التجارة ، فكان بطريق اليعاقبة الأنبا يونس بن أبى غالب ، يعمل حتى عام ٥٨٦ هـ ــ ١١٩٠ م تاجرا فى الكارم ويتردد على بلاد الهند واليمن وحصل على أموال كثيرة من هذه التجارة(٢١) .

وكان ظهور التجارة الكارمية أحد الأسباب التى أدت الى توقف نشاط تجار اليهود الذين يقال لهم الرهدانية أو الراذانية ، الذين أتاحت لهم الدولة الاسلامية حرية الانتقال بين دار الاسلام ودارالحرب ، فأحكموا الصلات التجارية بين الدارين وقاموا بدور هام فى تجارة العبور العالمية(٢٢) ويذكر ابن خرداذبة(٢٣) (وكانوا يسافرون بين الشرق والغرب ويحملون من فرنجة الخدم والغلمان والجوارى والديباج والخز الفائق والفراء والسمور ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفرما ويحملون تجـــارتهم على الظهر الى القلزم ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى جدة ثم يمضون الى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المســك العود والكافور والدار صينى وغير ذلك ، ويرحلون الى القلزم ثم يتجولون الى الفرما ويركبون البحــر المغــربى فربما عولوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها للروم وربما صاروا بها الى بلاد الفرنجة

---

(١٩) عطية القوصى ، أضواء جديدة على تجارة الكارم ، فصلة من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ٢٢ ، ١٩٧٥ ، ص ٢٣ .

(٢٠) نفس المرجع ، ص ٢٤ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ٣١ .

(٢٢) محمود اسماعيل ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

(٢٣) المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ ، صفحات ١٥٣ ــ ١٥٤ .

فباعوها هناك وان شاءوا حملوا تجارتهم فى البحر الغربى فخرجوا بانطاكية وساروا الى الفرات فركبوا الى دجلة الى الابلة ، الى عمان والهند والصين . وكانوا يتكلمون العربية والافرنجية والفارسية والرومية) .

واسفرت هذه التجارة العالمية بداية من العصر العباسى الأول وما تلاه عن نشوء أسلوب جديد فى المعاملات المالية ليواجه الحركة الكبيرة فى الأسواق والاموال المتدفقة بين الشرق والغرب ، وحتى يجد وسائل مأمونة للدفع بعيدة عن اللصوص ، فنشأ النظام المصرفى ولجأ كثير من الناس للتعامل مع أصحاب المصارف(٢٤) ، كما ارتبط بها أيضا التوسع المدينى والعمرانى ، حتى تضاعفت أعداد أهل الذمة فى المدن الكبرى وبخاصة بغداد واشتغلوا فيها بالأعمال التى درت عليهم الأرباح الوفيرة ، لأنهم اهل معرفة بالحساب والكتابة والخراج لاسيما النصارى(٢٥) .

الصيرفة :

لذلك لعب أهل الذمة دورا ملموسا فى العمل بالصيرفة منذ هذه الفترة ، كما ازداد احتكارهم لهذه الوظيفة خلال القرن الرابع الهجرى بسبب ما شهده العالم الاسلامى من انتعاشة على الصعيد التجارى كما اسلفنا ، وما ترتب عليه من اهتمام الدولة العباسية بتحسين العملة فبدأت العملة الذهبية تنفذ شرقا ، وهذه كانت أكبر علامة من علامات وحدة التجارة الاسلامية ، فدخلت العملة الذهبية بغداد وجاء حساب الحكومة بالدنانير وتم هذا فى الفترة بين عامى

---

(٢٤) متز ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ .
(٢٥) جورجى زيدان ، التمدن الاسلامى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .
(٢٦) متز ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

٢٠٦ ـــ ٣٠٣ هـ / ٨٧٤ ـــ ٩١٥ م(٢٦) وانتقل ذلك الى الولايات الاسلامية كافة وبعد ما كان التعامل فى القرنين الماضيين بالفضة فى الولايات الشرقية وبالذهب فى الولايات الغربية ، فأصبح التعامل بالذهب مما ساعد على الاستمرار فى الاعتماد على من يقومون بتحويل العملة من فضة الى ذهب وكذلك القيام بتقدير قيمتها ومراقبة سلامة النقد لصالح الدولة(٢٧) .

وكان احتكار أهل الذمة للعمل بالصيرفة ، يرجع الى عدم رغبة المسلمين فى أن يكون أولادهم خدمة لأهل الذمة العاملين بها(٢٨) وان عمل بها بعض المسلمين أمثال الماذرائيين(٢٩) فى مصر الاخشيدية الذين كانوا فى الأصل تجارا فرسا من احد أعمال البصرة واستقروا فى سيراف حتى أواخر القرن الثالث الهجرى ثم انتقلوا الى مصر .

ولم يكن الصيارفة بشكل عام سوى تجار فى الأصل ، فلم توجد بين الصيرفة والتجارة فى تلك الفترة الحدود الفاصلة التى نعرفها اليوم(٣٠) .

ولمواكبة حركة النشاط التجارى فى العالم الاسلامى ، انتشر الصيارفة فى المدن التجارية الهامة ، ففى الكوفة اشتغل الصيارفة بتحويل الدراهم الفضية الى دنانير ذهب وحل مشكلة تنوع جودة النقود من العملة الواحدة واختلاف أوزانها بصرف هذه الأنواع

---

(٢٧) Fischel, Jews, P. 3.

(٢٨) القوصى ، اليهود ، ص ٧٥ .

(٢٩) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الاخشيديين ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، صفحات ٣٧ ـ ٣٩ .

(٣٠) كلود كاهن تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ١٦١ .

بعضها ببعض حسب حاجات أصحابها(٣١) ، وكذلك انتشروا فى أسواق مدينة البصرة ، حيث كان يجتمع صيارفتها مع تجار الجملة فى سوق خاص من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى المساء لتصفية الحسابات التى بينهم(٣٢) . وكان أسلوب التعامل يتم من خلال كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكا ثم يشترى كل ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف ، فلا يستخدم المشترى شيئا غير صك الصراف مادام مقيما بالمدينة(٣٣) .. وفى بغداد كان لهم مكان خاص فى سوق الكرخ فى درب عرف بدرب عون(٣٤) . وعمل اليهود بالصيرفة بالقرب من أصفهان حيث كان لهم بها سوق خاص(٣٥) ، وكذلك بمدينة تستر حيث كان أغلب التجار يهودا وان كانوا يعملون بصناعة البسط وكانوا صيارفة أكثر منهم صناعا(٣٦) .

وشارك النصارى اليهود فى العمل بالصـــيرفة وازدادت أعدادهم حتى انه كان فى أواخر القرن الثالث الهجـــرى أغلب الصيارفة منهم فى الدولة الاسلامية(٣٧) .

وكان للصيارفة بالفسطاط سوق يعرف بـ (سوق الصيارفة وهو مقابل لسوق السيوفيين فى عهد الفاطميين(٣٨) . وعند مجىء

---

(٣١) الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ، بغداد ١٩٤٨ ، ص ١٧٠ .

(٣٢) نفسه ، ص ١٧١ .

(٣٣) ناصر خسرو ، سفرنامة ، تحقيق وترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٩٦ .

(٣٤) مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٣٦) المقدسى ، أحســن التقاسيــم فى معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٩ ، ص ٣٣٨ .

(٣٧) الدورى ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(٣٨) المقريزى ، الخطط : ٢ ، ص ٩٧ .

جوهر عارضه صيارفتها عندما اقدم على اصلاح النظام النقدى وتحديد مقادير كل عملة فقاموا بثورة ، الا أن جوهر هدد بحرق مكان الصيارفة مما جعلهم يخضـــــعون لأوامره وكان اغلبهم من اليهود(٣٩) ، كما تذكر المصادر(٤٠) ان زوجة الاخشـــيد أودعت لدى احد اليهود جواهرها مع دخول الفاطميين مصر ، فلما طالبته انكرها ، فشكته الى الخليفة المعز الذى اعاد لها جواهرها .

وقد القت وثائق الجنيزة(٤١) الضوء على عمل الصيارفة فى مصر خلال العصر الفاطمى ، فكانوا يقومون فى الأصـــــل بدور الوساطة بين الناس ودار الضرب ، فيأخذون من الناس العملة المختلفة والمعادن الثمينة ويعطونهم ما يساويها فى القيمة الرسمية من الدنانير ، لذلك حفلت هذه الوثائق بعبارات مختلفة تدل على هذا الدور ومنها اشتريت دنانير من الصراف وأرسلت فضة لبيعها عند الصـــــراف .

وتاثرت الصيرفة بازدهار التجارة العالمية ، فتوسعت أعمالهم الى القيام بعمل البنوك الحالية ، وهو قبول ودائع الناس وتقديم سلف وقروض للتجار مقابل فوائد محدودة ، وقام الكثيرون بايداع أموالهم عند هؤلاء الصرافين ومنهم أبو على الخازن حيث أودع خمسين الف دينار عند صـــــراف(٤٢) كذلك أودع أبو زيد على ابن عيسى الف دينار عند صراف آخر(٤٣) .

---

(٣٩) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، القاهرة ١٩٦٧ ، ج ١ ، ص ١٣٢ .
(٤٠) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٧٨ .
(٤١) Goitein, Med. Soc., 11, PP. 230 — 281.
(٤٢) مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٨٨ .
(٤٣) الصابى ، تحفة الأمراء ، ص ٢٩١ .

الجهبذة :

كما صاحب وظيفة الصيرفى آنئذ وظيفة الجهبذ ، التى ظهرت فى الدولة العباسية جنبا الى جنب مع الصيارفة كوظيفة مشتقة منها واستمرت هذه الوظيفة خلال القرنين الثالث والرابع وظلت موجودة بعد هذه الفترة(٤٤) واختلفت التفسيرات حول وظيفة الجهبذ ، فالبعض لم يفرق بين الجهبذ والصراف(٤٥) ، أو أنه صاحب مصرف أو تاجر أو انه الناقد الخبير لغوامض الأمور العارف بالنقد(٤٦) .

ويرى أحد الدارسين(٤٧) أن الجهابذة أيضا كانوا فى الأصل تجارا مثل الصيارفة وانهم عملوا فى أول الأمر بالصيرفة ثم ارتقى بهم الحال دون سائر الصيارفة ، فأصبحوا كتاب خراج فى أقاليم الدولة المختلفة ، ثم تطور الأمر بهم وزاد رقى حالهم فأصبحوا أصحاب بيوت مالية كبيرة تعمل لحساب الخلفاء والوزراء وكانوا يقومون بدور الوسطاء بين الخلفاء وكبار التجار الذين كان الخلفاء يقترضون المال منهم .

ولقد غلب اليهود على العمل فى هذه الوظيفة فى الولايات الشرقية وكذلك فى الشام ، وفى مصر عمل يعقوب بن كلس قبل أن يتولى الوزارة ، وكذلك آل التسترى بالجهبذة(٤٨) ، كما عمل النصارى أيضا فى هذه الوظيفة .

---

(٤٤) عطية القوصى ، اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، صفحات ٧٧ — ٧٨ .

(٤٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٤٦ .

(٤٦) Fischel Jews, P. 8, 20.

(٤٧) عطية القوصى ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٤٨) Op. Cit., P. 72.

وانشىء فى بغداد فى عام ٣١٦ هـ / ٨٢٦ م ديوان للجهبذة لاستقبال الأموال التى يرسلها جهابذة الاقاليم فى شرقى وغربى الدولة العباسية وتولى رئاسة هذا الديوان جهبذ نصرانى يدعى (ابراهيم بن أيوب) ، وتولى بعد ذلك عدد من الجهابذة النصارى لهذا الديوان منهم ابراهيم بن يوحنا وزكريا بن يوحنا وسهل بن ناظر واسرائيل بن صالح وغيرهم كثيرين(٤٩) ، كما تولى هذا الديوان بعض اليهود مثل هارون بن عمران ويوسف بن فينحاس الجهبذان الشهيران(٥٠) .

ولم يظهر هذا الديوان فى مصر الا فى أواخر الدولة الفاطمية واتضح ذلك خلال الأزمة الاقتصادية التى وقعت فى مصر خلال خلافة المستنصر ووزارة اليازورى عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م فقام التجار بشراء غلات الفلاحين قبل الحصاد وحضروا الى الديوان وقدموا للجهبذ الأموال المستحقة عليهم وشرطوا أن يحملوا الغلال الى مخازنهم عند الحصاد ، لكن الوزير اليازورى منع ذلك وكتب الى عمال النواحى باستعراض سجلات الجهابذة وتحرير ما قام به التجار ومبلغ الغلة التى تم البيع عليها(٥١) .

واستطاع الصيارفة والجهابذة بشكل عام الحصول على أموال طائلة من هذا العمل ، فضلا عن الأموال التى حققوها من العمل فى التجارة ويؤيد ذلك ما ذكرته المصادر(٥٢) من أن وزير الرشيد يحيى البرمكى قد استكثر ارسال والى خراسان له عشرة ملايين

---

(٤٩) Fischel, Jews, P. 315.

(٥٠) عطية القوصى ، اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، ص ٨٣ ؛

(٥١) المقريزى ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشرة محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ ؛ صفحات ٢٠ — ٢١ .

(٥٢) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٢٨ .

درهم فرد عليه الرشيد لو قصدت لدرب من دروب الصيارفة بالكرخ لوجدت منه اضعاف هذا . وتذكر وثائق الجنيزة(٥٣) أيضا أن أحد صيارفة الفسطاط كان لديه ثروة طائلة حصـــل عليها من عمله بالصيرفة الى جانب عمله كتاجر .

كما ارتفع شأن أهل الذمة من خلال عملهم بالجهبذة ، اذ ان مهمتهم تحولت من كتاب خراج فى الأقاليم الى أصحاب بيوت مالية للايداع والتسليف نظير الفائدة وساعدهم على ذلك تلك الثقة التى أولاها لهم كبار رجال الدولة والوزراء وائتمانهم على أموالهم ، فضلا عن الرغبة الملحة من جانب الوزراء لصـــيانة أموالهم التى طالما تعرضت للمصادرة خاصة خلال خلافة المقتدر بين عامى ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ — ٩٣٢ م ، كما ازدادت أهمية الجهابذة لازدياد أهمية الايداع أمانا من المصادرة أو بدلا من تحويلها الى ذهب وجواهر ودفنها فى التراب(٥٤) .

كذلك كثرت أعداد الجهابذة ، وأصبح للوزراء والعمال جهابذة قد اختصوا بهم ، فكان لأحد عمال الرشيد جهبذ خاص يودع عنده أمواله(٥٥) ، كما كان يقوم بمســـاعدة الوالى فى الشئون المالية للولاية ، أى أن دورهم تعدى الى مساعدة الولاة فى تحصـــيل الضرائب ، لذلك تضمنت واجبات جهبذ كل اقليم فى تسليم الوارد من الخراج وعمل حساب شهرى وسنوى به(٥٦) حتى توج هـــذا

---

(٥٣) Goitien, Med, So., 11, P. 238.
(٥٤) Fischel, Op. Cit., PP. 13 — 14.
(٥٥) الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٦٣ .
(٥٦) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٤ .

الدور فى النهاية الى القيام بالتسليف والايداع مقابل الفائدة ولذلك اقتصر فى الغالب فى العمل على أهل الذمة ، لأن الاسلام يحرم الربا .

صفوة القول ، ان الحرية المتاحة لأهل الذمة فى الانتقال بين أرجاء العالم الاسلامى وظروف المنطقة وقتئذ قد ساعد على ظهور أهل الذمة وتألقهم فى ميدان التجارة وما صاحبها من أعمال الصيرفة والجهبذة اللتين كان لأهل الذمة من يهود ونصـــــارى على وجه الخصوص دور ملحوظ من خلالهما حتى أصبحت وضعيتهم الاجتماعية متميزة .

الفصل الخامس

غير المسلمين والحياة الاجتماعية والثقافية

- الرعاية الاجتماعية
- علاقتهم بالمسلمين
- الثروات
- الأعياد
- حرية التعليم
- الترجمة
- الطب

غــــير المســـلمين
والحيــاة الاجتماعية والثقــافية

نال الذميون من خلال ما اتيح لهم من حقوق وحريات فى المجتمع الاسلامى « حق المواطنة » الذى يمثل الاطار التطبيقى لما جاء فى هذا الدين الحنيف من تعاليم سامية تدعو الى بناء مجتمع على أساس من العدالة الاجتماعية متحـــرر من العبودية والظلم الاجتماعى ، واستند نظام المواطنة فى الاسلام على القواعد الأساسية للاسلام من عدل ومساواة(١) .

وشمل حق المواطنة كافة الحريات التى اتيحت لأهل الذمة بداية من عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى طبقه على النصارى واليهود فى الحجاز ثم على مجوس هجر عن طريق الجزية

---

(١) ابراهيم العدوى : نظام المواطنة فى الاســــلام ، ومنجزاته للحضارة العربية ، من مجموعة البحوث فى تاريخ الحضارة الاسلامية التى القيت فى ندوة للحضارة الاسلامية فى ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكرى ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٦٩ .

التى بمقتضاها أصبح الذميون رعايا من ابناء الدولة الاســلامية ينعمون بحقوق المواطنة فى ظل الأمان والضمان والعهد(٢) ، مما أباح لأولئك الرعايا ممارسة مختلف أوجه النشاط فى المجتمــــع الاسلامى والمشاركة فى الحياة العامة باعتبارهم اعضاء مؤثرين فى المجتمع فاستخدموا فى الادارة وشاركوا فى الحياة الاقتصادية . وبديهى أن ينعكس كل ذلك على مظاهر الحياة الاجتماعية ، لأنهم لم يعيشوا بمعزل عن حركة المجتمع الاسلامى ، لكنهم كونوا جزءا من هذا الاطار العام له ، فشملتهم الدولة الاســـــلامية بالرعاية الاجتماعية ، كما نشأت بينهم وبين المسلمين كثير من العلاقات الاجتماعية : متمتعين بوضعية اجتماعية أتاحت لهم تكوين الثروات ولديهم الحرية فى الاحتفال بأعيادهم الخاصة . وبذلك استطاع الذميون أن يمارسوا مظاهر الحياة الاجتماعية بحرية تامة فى دار الاسلام .

ومن بين الطوائف التى انتشرت فى الدولة الاسلامية بأعداد كبيرة نسبيا اليهود حيث بلغ عددهم فى العراق حتى نهاية القرن السادس الهجرى حوالى ستمائة الف يهودى(٣) . وكان ببغداد اذ ذاك نحو الف يهودى ، كما اقاموا فى مدن أخرى بالعراق ففى الموصل سبعة آلاف وفى جزيرة ابن عمر اربعة آلاف(٤) ، كما كان بالكوفة سبعة آلاف والبصرة الفان(٥) وفى خراسان كان يوجد يهود كثيرون ونصارى قليلون(٦) ، أما فى مصر فشكل اليهود فى مدينة الفسطاط عددا كبيرا بالنسبة لبقية مدن مصر حيث تركزت الجالية

---

(٢) نفس المرجع : صفحات ١٧١ — ١٧٢ .
(٣) متز ، الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٨٢ .
(٤) نفســــه : ص ٨٢ .
(٥) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٨٠٢ ، ص ١٩٤ .
(٦) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٣٢٣ .

اليهودية ، وكان فى القاهرة سبعة آلاف يهودى وفى الاسكندرية ثلاثة آلاف وبالمدن التجارية فى الصعيد ستمائة(٧) .

كما بلغ عدد النصارى فى بغداد ما بين اربعين وخمسين الف نصرانى(٨) بدليل انتشار الأديرة والكنائس النصرانية فى انحاء المدينة ، كما كان النصارى كثيرى العدد فى مدينتى الرها وتكريت حيث تجمع سائر فرق النصارى وبها البيع والأديرة(٩) ، وفى مصر شكل النصارى عددا لابأس به من اهل مصر ، فكان دافعو الجزية فى القرن الثانى الهجرى خمسة ملايين وهذا يدل على انه كان بمصر عدد كبير من الأقباط(١٠) وحسبنا دليلا على ذلك انتشار الكنائس والأديرة التى ذكرها ابو صالح الأرمنى فى كتابه كنائس واديرة مصر والمقريزى أيضا فى خططه .

اما المجوس ، فكانوا كثيرين بالعراق ، خاصة فى جنوب فارس ، كذلك انتشر الصابئة بأعداد قليلة بحران والرقة وديار مضر ، لكنهم انقرضوا حتى أن عددهم مع مطلع القرن الخامس الهجرى لم يتجاوز أربعين نفسا(١١) ، ويبدو انهم تمتعوا ايضا بحماية الخلافة فقد أصدر الخليفة القاهر ، فى منتصف القرن الرابع الهجرى امرا بصيانتهم وحراستهم .

ولم يكن اهل الذمة يعيشون بمعزل عن المجتمع الاسلامى داخل جالياتهم ، فلم يوجد فى المدن الاسلامية احياء خاصة لليهود

---

(٧) نفس المصدر .
(٨) متز : المرجع السابق ، ص ٨٤ .
(٩) ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٥٦ .
(١٠) متز : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٨٣ .
(١١) نفسه : ص ٨٦ .

والنصارى بحيث لا يتعدونها وان آثر اهل كل دين أن يعيشــوا متقاربين(١٢) ، لكنهم ساكنوا المسلمين وحظوا باحترامهم ماداموا محافظين على العهود ولم ينقضوها ، ومن الثابت أن العرب مع بداية الفتوحات قد استقروا فى البلاد المفتوحة فلما فتحت دمشق لحق كثير من اهلها بهرقل فى مدينة انطاكية فكثرت فضول منازل دمشق فنزلها المسلمون(١٣) ، وعندما ولى هرثمة بن عرفجة على الموصل فى خلافة عمر بن الخطاب كان بالمدينة بيع للنصارى ومنازل قليلة ومحلة لليهود فحصرها وانزل العرب بمنازل لهم(١٤) ، وفى اقليم ما وراء النهر ، دخل قتيبة بن مسلم سمرقند واسكن المسلمين مع أهلها(١٥) .

ومع اختطاط المسلمين للأمصار الاسلامية فى أرجاء الدولة الاسلامية كافة ، لم يشأ العرب أن يجعلوا اهل الذمة جماعة منبوذة داخل المجتمع الاسلامى فوجدت منهم اعداد كبيرة فى هذه المدن كما أسلفنا كما انتشرت بها كنائسهم وبيعهم ، لأنه قد أتيح لهم السكنى فى أمصار المسلمين وفى أسواقهم يبيعون ويشترون(١٦) .

ويذكر المؤرخون(١٧) أن الخليفة الحاكم الفاطمى قد أفرد لليهود حارة زويلة وامرهم أن يسكنوها ولا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم ، ورواية أخرى تقول انه اسكنهم فى حارة اسمها الجودرية(١٨) ،

---

(١٢) نفسه . ج ١ ، ص ٩٣ .

(١٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٢٩ ، وقيل ايضا انهم صولحوا على انصاف منازلهم وكنائسهم .

(١٤) نفســـه : ص ٣٢٧ .

(١٥) نفســـه : ص ٤١١ .

(١٦) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٣٧ .

(١٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٥١ .

(١٨) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

واذا جاز لنا تصديق هذه الروايات فمرد ذلك اننا لا نستطيع أن نتخذ الحاكم بأمر الله مثلا يحتذى لجميع خلفاء المسلمين بل هو يعد استثناء ، كما سبق أن ذكرنا ، فى حين ان اليهود عاشوا بعيدين عن اضطهاد الحاكم .

الرعـــاية الاجتمـــاعية :

كما اهتم حكام الدولة الاسلامية بأحوال أهل الذمة وشملوهم بالرعاية التامة ، حتى يمكن ان يقال ان الذميين تمتعوا بالمظـــلة الاجتماعية من قبل الدولة الاسلامية بتطبيق التكافل الاجتماعى على طوائفهم مثل المسلمين ، وتجلى ذلك منذ بداية الفتوحات فى عهود الأمان ومنها ما عاهد به خالد بن الوليد أهل الحيرة فى عام ١٢ هـ/ ٦٣٣ م على أن أى شيخ غير قادر على العمل أو أصابه المرض ، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المســـلمين وعياله ما اقام بدار الهجرة ودار الاسلام(١٩) .

ونتبين مما قام به الخليفة عمر بن الخطاب تجاه أهل الذمة رغبته الملحة فى أن يشملهم بعدله ورعايته فتذكر المصادر(٢٠) أن عمر اجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر وقال : (ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم) وأعطاه شيئا من منزله ، ثم أرسل الى خازن بيت المال وقال له : انظر هذا وضرباءه ! (انما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون وهذا من مساكين أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن أمثاله ، كما مر

---

(١٩) ابو يوسف : الخراج ، صفحات ١٥٥ ــ ١٥٦ .
(٢٠) نفســـه ، ص ١٣٦ .

عمر فى أرض دمشق بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر ان يعطوا من الصدقات وان يجرى عليهم الحقوق بانتظام(٢١) .

كما أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بالرفق بأهل الذمة ، فاذا كبر الرجل منهم وليس له مال تنفق عليه الدولة ، فاذا كان له حميم ينفق عليه حميمه ، كما لو كان له عبد فكبرت سنه ، فلابد من الانفاق عليه حتى يموت أو يعتق ، وهذا معناه أن الدولة الاسلامية مع عمر قد كفلت الانفاق على فقراء أهل الذمة ماداموا لا يوجد لديهم من ينفق عليهم ولذلك كان كتاب عمر الى عامله على الكوفة : (ان قو أهل الذمة)(٢٢) ، كما كتب الي عامله على الكوفة ايضا بتوزيع ما فضل من اعطية الجند على أهل الذمة بعد أن وزع على المسلمين غير القادرين جزءا من هذا المال(٢٣) وانعكست هذه المعاملة الطيبة على تصرفات الرعية تجاه الذميين حتى حرص حرس عمر على دفع الظلم عن أهل الذمة(٢٤) .

ويبدو ان خلفاء بنى العباس كانوا حريصين ايضا على رعاية أهل الذمة اجتماعيا ، حتى سار على نهجهم أمراء بنى بوية ، فقد أذن عضد الدولة البويهى لوزيره النصرانى نصر بن هارون باطلاق الأموال لفقراء اهل الذمة(٢٥) .

---

(٢١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .
(٢٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧ .
(٢٣) نفســـــه .
(٢٤) نفسه ، ص ١٦٤ .
(٢٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٣٤ .

علاقتهم بالمسلمين :

وعلى صعيد العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة ، فقد نشأت وتحددت من خلال بعض النصوص القرآنية واحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : **((لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين))(٢٦)** وقال سبحانه ايضا : **((اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن اجورهن))(٢٧)** .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام مثلا اعلى للمسلمين فى معاملة الاديان الأخرى ، فقد روى انه كان يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويشيع جنائزهم ويزورهم ويكرمهم(٢٨) ، وروى أنه مرت جنازة امام الرسول فقام لها تعظيما ، فقيل له : انها جنازة يهودى ، فقال : اليس انسانا ، كما روى انه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته واجلسهم عليها ، كذلك اوصى الجار المسلم ان يحسن الى جاره غير المسلم(٢٩) ، واجاز التعامل معهم فى البيع والشراء ومشاركتهم فى التجارة على ان يكون البيع والشراء بيد المسلم(٣٠) .

وبذلك وضح للمسلمين اسلوب التعامل مع غير المسلمين من خلال حسن المعاملة والمجاملة فى المناسبات المختلفة بحضـــــور

---

(٢٦) سورة الممتحنة : آية ٨ .

(٢٧) سورة المائدة : آية ٥ .

(٢٨) ابن القيم الجوزية . احكام أهل الذمة ، صفحات ٢٠١ — ٢٠٣ .

(٢٩) نفســـه .

(٣٠) ابن القيم الجوزية ، المصدر السابق ، ج ٢ ، صفحات ٧٧٧ — ٧٧٨ .

افراحهم وزيارتهم وعيادة مرضاهم وشهود جنازاتهم ومشاركتهم فى الطعام والزواج من الذميات ، ومن مظاهر احترام أهل الذمة فى المجتمع الاسلامى ما ذكره المؤرخون(٣١) من قيام أحد قضاة بغداد واقفا لأحد الوزراء النصارى وهو عبدون بن صاعد النصرانى ، فلما انكر الشهود ومن حضره ذلك ، قال القاضى : هذا الرجل يقضى حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين خليفتنا وهذا من البر .

كما اختلط النصارى بالمسلمين عن طريق اتخاذ الخلفاء جوارى نصـــــرانيات مراعين فى ذلك التقاليد الدينية وقد تكون الجارية تلبس الصليب والزنار ، فكان للخليفة المهدى جارية نصرانية تعلق فى عنقها صليبا من ذهب(٣٢) .

وفى مصر ومع ازدياد اعداد الداخلين فى الاسلام ، فقد كان القبط ومع أنهم اقلية لكنها كانت اقلية كبيرة العدد حيث وجدت جاليات كبيرة فى مدينة الفسطاط والقطائع وكان اعيان هذه الطائفة القبطية لهم مكانتهم الاجتماعية فى البلاد ، وتشير أوراق البردى العربية الى ظاهرة الزواج بالذميات ، وهذه الظاهرة التى شاعت فى العصر الطولونى ومنها زواج بونة ابنة حليص من زوجها يزيد ابن قاسم(٣٣) .

كذلك شارك أهل الذمة فى أحداث الحياة العامة ، فحين اشتد المرض بأحمد بن طولون أمر الرعية بالدعاء له ، فخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بأناجيلهم ، بينما خرج صبيان المكاتب بالألواح

---

(٣١) ياقوت : معجم الأدباء ، القاهرة ١٩٦٥ ، ج ٦ ، ص ٣٦ .

(٣٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٠ ، روفائيل بابو اسحق، احوال النصارى ، ص ٦٠ .

(٣٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الأول ، وثيقة رقم ٤٨ .

على رعوسهم وخرج جميع العلماء والصلحاء وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء واستمروا على ذلك عدة أيام حتى مات(٣٤) .

وفى أفريقية فى عصر الولاة شارك النصارى فى استقبال الوالى الجديد الفضل بن روح بن حاتم عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، فنصبت له القباب من مسجد أم الأمير الى دار الامارة ، كما نصب له قرية ريحان فى طريقه وعليها طومار كتب فيه بخط غليظ : **((انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر))** ، فسأل الفضل من فعل هذا ؟ قالوا : قسطاس النصرانى ، فاستحسنه(٣٥) .

كذلك كان اهل الذمة يعاملون فى مارستانات بغداد معاملة المسلمين ، فعندما وقع وباء فى بغداد فى أوائل القرن الرابع فوقع الوزير على بن عيسى الى سنان بن ثابت طبيب الخليفة القاهر وهو الدى كان يتولى المعالجة واعطاء الأدوية للمرضى خارج بغداد بأن يعالج الذميين مثل المسلمين(٣٦) .

الثروات :

والواضح ان اهل الذمة استطاعوا من خلال ممارستهم لأوجه النشاط المختلفة فى المجتمع الاسلامى أن يملكوا الثروات ويقتنوا الضياع والأراضى ، فكان المسلمون والنصارى فى بغداد فى تملك الرقيق والاكثار من العبيد سواء ، كما جمع نصارى بغداد الثروات الضخمة وصرفوا الأموال وسكنوا القصور ، وكان الطبيب بختشيوع

---

(٣٤) البلوى : سيرة احمد بن طولون : صفحات ٣٣٠ — ٣٣١ .
(٣٥) الرقيق القيروانى ، تاريخ افريقية والمغرب ، ص ١٨٤ .
(٣٦) القفطى ، اخبار العلماء ، ص ١٣٢ .

يضاهى الخليفة المتوكل فى اللباس وعدد الجوارى والعبيد وعندما دعا الخليفة الى قصره احضر كل ما فى بغداد من الخيش ورطبه بالماء ليصير كل مكان يمر فيه الخليفة نديا ، وكان من عادته أن يجلس فى غرفة من الأبنوس ويخرج من قصره وبين يديه الف من الرجال ، كما يقال عنه ، انه كان يصرف كل ليلة خمسمائة دينار على الشموع والزيت والبخور(٣٧) ، وهذا الأمر مبالغ فيه لكنه يلقى الضوء على مدى الثراء الذى تمتع به الذميون آنذاك .

وفى مصر أيام الدولة الطولونية ، يبدو أن حالة اليهود المادية كانت طيبة ، بدليل أنهم اشتروا كنيسة الأقباط بالفسطاط من البطرك ميخائيل(٣٨) ، كما استطاع يعقوب بن كلس الذى اتى الى مصر أيام كافور الاخشيد من خلال عمله كوكيل للتجار أن يشترى ضياعا من ريف مصر ، كما أتاح عمله لدى المعز الاشراف على جميع الأعمال كما ذكرنا أنه قد أصبح له اقطاعات من قبل الخلافة بمصر والشـــام مبلغها ثلثمائة الف دينار واتسعت دائرته ووهب خمسمائة غلام(٣٩) كما استفاد أبو سعد ابراهيم بن سهل التسترى من تدخله فى الحكم واشرافه على ديوان أم المستنصر من جمع ثروة هائلة فكان على سقف داره ثلثمائة جرة من الفضة ، كما كان لأخيه أبى نصر مائتا الف دينار(٤٠) .

وهذه الثروات لم يقتصر امتلاكها على اليهود الذين وصلوا الى أعلى مناصب الدولة كما سبق ، ولم تكن أيضا قاصرة على

---

(٣٧) ابن أبى اصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٤٣ .
(٣٨) Mann, the Jews, PP. 14 — 15.
(٣٩) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، صفحات ٥ — ٦ . Fischel. Jews P. 48
(٤٠) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص ٦٩ . Ibid, P. 77.

الرجال ، فتشير وثائق الجنيزة الى امتلاك المرأة اليهودية للعقارات لدرجة كبيرة تستلفت النظر(٤١) .

وما يدل على ثراء أقباط مصر ، ما أوقف على الكنائس من ضياع ومزارع وقياسر وخانات وحوانيت ونخل وبساتين من شجر مثمر(٤٢) . كذلك انعكس ثراء النصارى فى عهد الخليفة الحافظ فيما تفاخروا به من ركوب البغلات المسومة بالسروج المحلاة باللجم الثقيلة(٤٣) .

ويســــــوقنا هذا الى حقيقة لابد من تأكيدها وهى أن أهل الذمة قد تصدروا السلم الاجتماعى الى جانب وجود شرائح منهم فى الطبقات المختلفة ، بمعنى أنهم لم يحصروا فى طبقة بعينها باعتبارهم محكومين ، بل على العكس من ذلك ، لم يغلق دونهم الهيكل الاجتماعى ، لأنهم شاركوا فى الحياة العامة بمختلف أوجهها فكان من البديهى أن تتوزع شــــــرائح أهل الذمة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، ففى الطبقة العليا اندرج فيها من الذميين من ولوا الوزارة ومن عملوا فى الجهاز الادارى فى الدولة الاسلامية جنبا الى جنب الأمراء والولاة والحكام الذين يشكلون هذه الطبقة من المسلمين ، أما الطبقة الوسطى فيندرج فيها الأطباء والمهندسون والعاملون فى التجارة والصيرفة والجهبذة ، والطبقة الدنيا فبديهى أن يندرج فيها الأساكفة والخياطون والصباغون وغيرها من الحرف التى تنتمى الى هذه الطبقة فى الهيكل الاجتماعى العام ، وحسبنا أن المسلمين قد راعوا هذا الاختلاف فى الانتماء الطبقى للذميين منذ البداية عند تقديرهم للجزية كما سبق أن أسلفنا .

---

(٤١) Ashtor, Histoire du Prix et des Salaires, Paris 1969. PP. 182, 185, 199.

(٤٢) يحيى بن سعيد : صفحات ٢٢٩ ، ٢٣٢ .

(٤٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٠٦ .

الأعيــــــاد :

وفيما يتعلق بالأعياد ، فقد مارس أهل الذمة الحرية التامة فى الاحتفال بها ، ومن الثابت أن عهود الأمان المبكرة قد خولت لهم حرية الاحتفال ومنها عهد أبى عبيدة بن الجراح مع أهل الشام ، فقالوا له : (اجعل لنا يوما فى السنة نخرج فيه صلباننا بلا رايات ، وهو يوم عيدنا الأكبر ، فأجابهم الى ذلك) ، كما أكد الخليفة عمر ابن الخطاب هذا الأمر(٤٤) ، وكذلك ما عاهد به خالد بن الوليد أهل الحيرة ، فأطلق لهم الحرية أيضا فى اخراج النواقيس وضربها فى يوم عيدهم(٤٥) .

واستمر أهل الذمة يحتفلون بأعيادهم الدينية بحرية تامة ، حتى أن بعض المؤرخين أفردوا لها فصولا مما يؤكد أنها كانت تشكل جزءا له أهميته فى المجتمع الاســــلامى ، لا سيما أعياد اليهود والنصارى باعتبارهم يمثلون الغالبية العظمى من أهل الذمة فى هذا المجتمع .

أما أعياد اليهود فقد قسمها المؤرخون الى قسمين : أعياد شرعية وأعياد محدثة ، والأعياد الشرعية عددها خمسة وهى ما نطقت به التوراة ومنها :

« عيد رأس السنة » : ويسمونه عيد « رأس هيشا » أى عيد رأس الشهر ويحل فى شهر تشرى(٤٦) ، كما يعتبر هـذا العيد أيضا عيد عتق وحرية عند اليهود ويســمى عيد البشـــارة بعتق الأرقاء(٤٧) .

---

(٤٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٤٩ .
(٤٥) نفسه : ص ١٥٤ .
(٤٦) القلقشندى : صبح ، جـ ٢ ، ص ٤٢٦ .
(٤٧) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧٣ .

والعيد الثانى : عيد صوماريا ويسمونه « الكبور » وهو يوم « الاستغفار » وجعل الربانون مدة الصوم خمسا وعشرين ساعة تبدأ قبل غروب شمس التاسع من شهر تشرى وتنتهى بعد مضى ساعة من غروبها فى اليوم العاشر ، وربما سموه العاشر ، بينما جعله القراءون أربعا وعشرين ساعة تبدأ من غروب شمس تاسع شهر تشرى وتنتهى بغروبها فى اليوم التالى(٤٨) . ومن لم يصم منهم هذا الصوم قتل شرعا ، ويعتقدون أن الله يغفر لهم ذنوبهم فيه ماعدا الزنا بالمحصـــنات وظلم الرجل لأخيه وانكار ربوبية الله تعـــالى .

عيد المظلة : وكان الاحتفال به يبدأ فى الخامس عشر من شهر تشرى ، وهو سبعة أيام يعيدون فى أولها ، وفى اليوم الثامن عيد الاعتكاف ، وفى ذلك العيد كان اليهود يجلسون تحت ظلال سعف النخل الأخضر وأغصان الزيتون ونحوها من الأشجار التى لا يتناثر ورقها على الأرض تذكارا للغمام الذى أظلهم به الله تعالى فى التيه ، ويصوم فيه القراءون فى اليوم الرابع والعشـــرين من هذا الشهر ويعرف « بصوم كوليا » انما عند الربانيين فكان الصوم فى ثالثه(٤٩) .

عيد الفطير : ويسمونه « الفصح » ويكون فى الخامس عشر من شهر نيسان وهو سبعة أيام ، يأكلون فيها الفطير وهى الأيام التى تخلصوا فيها من فرعون بعد أن أغرقه الله ، ولا يصح أن يبدأ هذا العيد عند الربانيين يوم الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة وهو مالم يتقيد به القراءون(٥٠) ، « يعتبر هذا العيد عند اليهود من أعياد

---

(٤٨) القلقشندى ، المصدر السابق .

(٤٩) المقريزى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٥٠) نفســـه ، ص ٤٧٤ .

التضحية ومواسم الحج ففيه يحج القراءون والربانون الى بيت المقدس ويضحون على الصخرة المقدسة(٥١) .

عيد الأسابيع ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أيام ، وهى عندهم الأسابيع التى أنزل الله تعالى فيها على بنى اسرائيل الفرائض متضمنة الوصايا العشر المنسوبة الى موسى عليه السلام . وهذا العيد يحل فى شهر سيوان من شهور اليهود . وفيه يأكلون القطائف ويتفننون فى عملها ويأكلونها بدلا من المن الذى أنزله الله عليهم فى هذا اليوم ، ويسمى هذا العيد أيضا « عشرتا » بالعبرية ومعناه الاجتماع ولا يجد هذا العيد عند الربانيين أيام الثلاثاء والخميس والسبت . بينما لم يتقيد القراءون بذلك عند احتفالهم بهذا العيد(٥٢) .

أما الأعياد المحدثة زيادة على الأعياد الشرعية ، عيدان « عيد الفوز » و « عيد الحنكة » .

عيد الفوز : يبدأ فى الثالث عشر من آزار الى الخامس عشر ، وسبب اتخاذ اليهود لهذا العيد ، أنه بعد تدمير بيت المقدس على يد بخت نصر الذى أجلاهم الى عراق العجم فى مدينة تسمى خى فيما عرف بالسبى البابلى ، فلما ملك أردشير ، علم بأن لأحد أحبار اليهود ويسمى مردوخاى ابنة عم رائعة الجمال ، فتزوجها وقرب ابن عمها فحسده هيمون وزير الملك وعمل على التخلص منه ، هو وجميع طائفة اليهود فى المملكة ورتب هذا الأمر مع نواب الملك على أن يقتل كل أحد منهم من يعلمه من اليهود وحدد لذلك يوما وهو

---

(٥١) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٢٦٨ .
(٥٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ ، المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ .
ص ٤٧٤ .

النصف من آذار ، لكن مردوخاى علم بهذا الأمر عن طريق جواسيسه فنقل الأمر الى ابنة عمه التى قامت هى الأخرى بابلاغ الملك ، فأمر بقتل هيمون وأتاح لليهود قتل شيعته من الثالث عشر الى الخامس عشر من آذار ولذلك اتخذ اليهود من هذه المناسبة عيدا اتسم باللهو والخلاعة(٥٣) .

عيد الحنكة : وهو ثمانية أيام ، وسبب اتخاذهم لهذا العيد يرجع الى ما تعرض اليه اليهود عام ١٦٥ ق . م . تحت حكم البطالمة فى بلاد الشام من ارغامهم على عبادة الأصنام ، لكن اليهود استطاعوا من خلال قيام كاهنهم الأكبر يعاونه أبناؤه الثمانية بحركة مضادة استردوا بعدها الهيكل من جيوش البطالمة فى الخامس والعشرين من كسليو نظف فيه الهيكل من التماثيل الاغريقية ، لكنهم لم يجدوا الزيت لاضاءة الهيكل ، فوزعوا الوقود على عدد من المصابيح التى يوقدونها على أبواب دورهم كل ليلة حتى تنتهى الثمانى ليالى ولذلك يعنى اسم الحنكة المرتبط بهذا العيد بمعنى التنظيف(٥٤) .

وفيما يتعلق بأعياد النصارى فهى كثيرة وهى أربعة عشر عيدا وتنقسم الى قسمين : أعياد كبار وعددها سبعة أعياد وأعياد صغار وعددها سبعة أيضا(٥٥) .

وأول الأعياد الكبار هو عيد البشارة أى بشارة غبريال

---

(٥٣) نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ .

(٥٤) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٥٥) القلقشندى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، صفحات ٤١٥ — ٤١٦ ، المقريزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ٢٦٣ — ٢٦٥ .

للسيدة العذراء بميلاد عيسى عليه السلام وموعده فى التاســـــع والعشرين من برمهات من شهور القبط سنويا .

والعيد الثانى هو : « عيد الزيتونة » أو « عيد الشعانين » اى التسبيح وهو فى سابع احد من صومهم فى ذكرى دخول المسيح الى القدس ثم دخوله راكبا لليعفور (وهو الحمار) والناس يسبحون بين يديه وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وعادتهم فى هذا اليوم أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة .

والعيد الثالث هو : « عيد الفصح » وهو بمثابة العيد الكبير عندهم يحل فى يوم الفطر من صومهم الأكبر ، ويقولون ان المسيح قام فى هذا اليوم بعد صلبه ودخل على تلاميذه وسلم عليهم واكل معهم وأوصاهم ثم صعد الى السماء بعد أربعين يوما .

والعيد الرابع هو : « عيد خميس الأربعين » ويذكر النصارى أن السيد المسيح عليه السلام بعد أربعين يوما من القيام خرج ومعه تلاميذه ، حيث باركهم ثم صعد الى السماء بعد أن تم ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ورجع تلاميذه الى بيت المقدس بعد وعده لهم بظهور أمرهم .

والعيد الخامس هو : « عيد الخميس » الذى كان يطلق عليه أيضا « عيد العنصرة » ويحل فى السادس والعشرين من شهر بشنس بعد خمسين يوما من القيام ، ويعتقد النصارى أن روح القدس حلت فى التلاميذ فى هذا اليوم ، وتفرقت عليهم الســـــنة الناس ، فتكلموا بجميع الألسنة ، وذهب كل واحد منهم الى البلاد التى يعرف لغتها يدعون الناس الى دين المسيح .

أما العيد السادس فهو « عيد الميلاد » ويحل فى اليوم التاسع والعشرين من كيهك ، وهذا اليوم يوافق عندهم ليلة ميلاد المسيح

ويقولون انه ولد يوم الاثنين فيجعلونه عشية الأحد ، وفيه توقد المصابيح بالكنائس ويزينونها .

والعيد السابع هو : « عيد الغطاس » ويتم الاحتفال بهذا العيد فى الحادى عشر من طوبة في مناسبة تعميد السيد المسيح عليه السلام على يد يوحنا المعمدان يحيى بن زكريا عليه السلام في مياه نهر الأردن وعادة النصارى فى هذا اليوم غمس أولادهم فى الماء رغم شدة البرد .

أما الأعياد الصغار فهى سبعة أيضا منها : « عيد الختان » ويحل فى سادس بؤنة من شهورهم ، فى ذكر ختان المسيح عليه السلام وهو اليوم الثامن من الميلاد .

والعيد الثانى هو : « عيد الأربعين » فى الثامن من أمشير فى ذكرى مباركة الكاهن سمعان للسيد المسيح عليه السلام فى الهيكل بعد أربعين يوما من مولده .

والعيد الثالث : هو « خميس العهد » ويحل موعده قبيل الفصح بثلاثة أيام ، عادتهم فى هذا اليوم أن يقوم البطريرك بغسل أرجل الحاضرين من النصارى فى ذكرى غسل المسيح لأرجل حواريه ليعلمهم التواضع وفيه أخذ عليهم العهد أن لا يفترقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض ، وعامة النصارى يسمون هذا اليوم خميس العدس ، لأنهم يطبخون فيه العدس على ألوان .

والعيد الرابع هو : « سبت النور » ويعتقد النصارى أن النور يظهر على مقبرة المسيح فى هذا اليوم فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة بالقدس ، ويحل هذا اليوم قبل الفصح بيوم .

أما العيد الخامس فهو : « عيد حد الحدود » وهو بعد عيد الفصح بثمانية أيام فى أول أحد بعد الفطر ، وفيه يقومون بتجديد أثاث البيوت ، كما تنشط فيه المعاملات الدنيوية لديهم .

والعيد السادس : « عيد التجلى » ويحل موعده فى الثالث من شهر مسرى ويذكرون أن المسيح عليه السلام تجلى على تلاميذه فى هذا اليوم بعد أن رفع ، وتمنوا عليه أن يحضر لهم (ايليا وموسى) فأحضرهما لهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد الى السماء وصعدا معه .

والعيد السابع هو : « عيد الصليب » فى السابع عشر من شهر توت يحتلفون فيه بذكرى ظهور صليب الصلبوت ويذكر انه بعد أن تنصر قسطنطين خرجت أمه هيلانة الى الشام فبنت الكنائس وسارت الى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى اعتقد النصارى أن المسيح صلب عليها فحملت اليها فغشتها بالذهب واتخذت ذلك اليوم عيدا(٥٦) .

وللنصارى أعياد أخرى ، غير تلك الأعياد السابقة وقد بلغت حسب تقدير القلقشندى مائة وثمانية وسبعين عيدا وموسما موزعة على شهور السنة(٥٧) . ومنها عيد النيروز وهو أول السنة القبطية ، وهو أول يوم من شهر توت(٥٨) . كذلك عيد الشهيد ويحل فى اليوم الثامن من شهر بشنس ، ويقولون أن النيل بمصر لا يزيد فى كل سنة حتى يلقى النصارى فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى(٥٩) .

ومما يدل على قوة الروابط الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة ويشير أيضا الى تسامح المسلمين انهم لم يتركوا الذميين فقط

---

(٥٦) القلقشندى ، صبح ، ج ٢ ، صفحات ٤١٨ — ٤١٩ .
(٥٧) نفسه : صفحات ٤٢٠ — ٤٢٥ .
(٥٨) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .
(٥٩) نفسه : ص ٦٩ .

يحتلفون بأعيادهم بحرية تامة ، بل شاركهم المسلمون الاحتفال بها ، وكان يبلغ الأمر فى بعض الأحيان قيام بعض الخلفاء بحضـــور مواكبهم وأعيادهم والأمر بصيانتهم ، وفى حالة انقطاع المطر كانت الدولة تأمر بعمل مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الأسقف واليهود ومعهم النافخون فى الأبواق(٦٠) .

وفى القرن الرابع الهجرى ، كان نصارى بيت المقدس يخرجون فى عيد الزيتونة (عيد الشعانين) ويحملون شجرة من شـــجر الزيتون من الكنيسة ويشقون بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات حاملين الصليب مشهورا ويركب والى البلد فى جميع موكبه معهم ويذب عنهم(٦١) .

ونفس اليوم كان يطلق عليه فى بغداد يوم السباسب ، وكان المسلمون يشاركون النصارى فى الاحتفال به ، وكانت الوصائف تظهرن فى قصر الخلافة ، متزينات فى ثياب غالية ، وفى أعناقهن صلبان من الذهب وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون(٦٢) . وفى يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو شرقى بغداد ، بباب الشماسية ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو الا حضره(٦٣) . كما كان يحتفل بعيد الصليب ويشارك المسلمون النصارى وكان هذا اليوم يعد عطلة عامة(٦٤) . وكانت

---

(٦٠) متز ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(٦١) يحيى بن سعيد ، ص ١١٨ .

(٦٢) الأصفهانى ، الأغانى ، تحقيق عبد الكريم ابراهيم الغرباوى ، القاهرة ١٩٧٢ ، ج ١٩ ، ص ١٣٨ .

(٦٣) الشابشتى ، الديارات ، حققه وعلق عليه كوركيس عواد ، دمشق ١٩٥١ ، ص ٩ .

(٦٤) متز ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

الاحتفالات التى تتم فى الأديرة النصرانية تظهر أيضا هذه المشاركة ، ففى دير الثعالب الذى يقع فى الجانب الغربى من بغداد ، كان لا يتخلف عن عيده أحد من النصارى والمسلمين(٦٥) ، وفى يوم عيد القديسة أشمونى والذى كان يعمل بدير أشمونى بقطربل ، غربى دجلة ، وكان هذا العيد من الأعياد العظيمة ببغداد ، يجتمع أهلها اليه كاجتماعهم الى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو الا خرج اليه(٦٦) ، وفى عيد بربارة ، كان المسلمون يعرفونه ويقدرون به الفصول ويعرفون وقت الأمطار(٦٧) ، وفى يوم الأحد الرابع من الصوم المسيحى ، كان يتم الاحتفال بعيد دير درمالس ، حيث يجتمع نصارى بغداد ويقيم فيه الناس بالأيام(٦٨) . وكانت العادة فى الاحتفال بعيد النيروز تبادل الهدايا ، وكان الخليفة فى بغداد يفرق على الناس أشياء منها صور مصنوعة من عنبر ومنها ورد أحمر(٦٩) .

ولم يكن الحال يختلف فى مصر من حيث مشاركة المسلمين فى أعياد أهل الذمة ، بل نستطيع أن نسهب فى هذا الجانب ، حتى نلقى الضوء على هذه الاحتفالات ومدى تسامح المسلمين مع الذميين فى الاحتفال بها فى دار الاسلام ، ففى عصر الولاة ظل الأقباط يحتفلون بأعيادهم الدينية ، ولم نسمع عن محاولة من قبل الولاة للحد من حرية الأقباط فى هذا الشأن ، لكنهم لم يشتركوا فيها ، على عكس ما حدث بعد ذلك فى عصر الطولونيين والاخشيديين الذين كانوا يشتركون فى هذه الاحتفالات بهدف التقرب من الشعب

(٦٥) الشابشتى ، المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٦٦) نفسه : ص ٤٩ .
(٦٧) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ١٢٢ .
(٦٨) الشابشتى ، المصدر السابق ، ص ٣ .
(٦٩) نفسه ، ص ٢٢ .

لمعاونتهم على الاستقلال عن الخلافة العباسـيـة ، أما الولاة فلم يحرصوا على ذلك لأنهم كانوا تابعين لدار الخلافة(٧٠) .

لذلك أقبل المصريون المسلمون على الاحتفال بأعياد النصارى، كما شارك فيها أيضا محمد بن طغج الاخشيد ، وشهد احتفالات عيد الغطاس عام ٣٣٠ هـ/٩٤١ م حيث كان فى داره المعروفة بالمختارة فى جزيرة بالنيل وقد أمر فأسرج من جانب النيل بالجزيرة ومن جانب الفسطاط ألف مشعل ، غير ما أوقده أهل مصر من المشاعل والشمع من مسلمين ونصارى الذين شاركوا فى هذا الاحتفال ، فمنهم من كان فى الزوارق ومنهم من كان فى الدور الدانية أو على الشطوط يظهرون المآكل والمشارب والملابس والملاهى والعزف الشىء الكثير(٧١) .

ونفس الشىء يقال عن الخلافة الفاطمية التى اتخذت من القاهرة مركزا لدولة كبرى ، أرادت أن تؤكد هذا الاستقلال عن خلافة بغداد بشتى الطرق ، لأنها كانت تهدف الى حكم العالم الاسلامى فبديهى أن يكون الخلفاء الفاطميون حريصين على التقرب الى الشعب المصرى بكل طوائفه ولذا جاءت سياستهم مع أهل الذمة أكثر تسامحا ، أضف الى ذلك ما وصف به الفاطميون من ميل للترف والرغبة فى اظهاره ، فكانت أعيادهم بوجه عام غاية فى البهاء والسرف ومنها أعياد الذميين ، فيصف المؤرخون(٧٢) يوم الاحتفال بعيد الغطاس فى عام ٤١٥هـ/١٠٢٥م فى خلافة الظاهر ، بأن الخليفة نزل بنفسه لنظر الغطاس ، وضربت للخليفة وحرمه الخيام ، كما أمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل فى الليل ، وكان

---

(٧٠) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٨ .

(٧١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، صفحات ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٧٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

هذا الاحتفال يمثل أقصى مظاهر المشاركة بين المسلمين والذميين ، فكانت تنصب الخيام على شاطىء النيل ، ويمتلىء النيل بالزوارق والمراكب التى توقد فيها الأنوار ليلا ، حيث يشعل فى تلك الليلة أكثر من ألف مشعل على الشطوط ، ولا يغلق فيها دكان ولا درب ولا سوق ، ويتبادل الناس في هذه الليلة الهدايا من أصناف الطعام والحلوى المختلفة(٧٣) . وكانت العادة أن يضاء سوق الشماعين وكانت حوانيته لاتزال مفتحة الى نصف الليل حيث يقصدها كثير من الناس(٧٤) . وكان من رسوم الدولة أن يفرق على جميع أهل الدولة النارنج والليمون والقصب والسمك والبورى برسوم مقررة(٧٥) .

وفى عيد خميس العهد ، كانت الدولة تضرب عملة صغيرة تسمى « خراريب » فى هذا اليوم وتفرق على رجال الدولة(٧٦) ، وفيه كان قبط مصر يأكلون العدس ، ويخرج أهل الاسكندرية الى المنارة بمأكلهم ، منهم من يذكر الله ومنهم من يصلى ومنهم من يلهو ولايزالون هناك الى نصف النهار وكان يباع فى هذا اليوم فى أسواق القاهرة بيض مصبوغ عدة الوان(٧٧) .

وفى ليلة عيد الميلاد ، كان يحتفل بايقاد النيران ، وكانت الدولة الفاطمية تفرق فيه جامات الحلاوة القاهرية على أرباب الرسوم ورجال الدولة فضلا عن طيافير الزلابية وماء الورد والسمك

---

(٧٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، صفحات ٢١٢ — ٢١٣ .

(٧٤) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٧٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

(٧٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(٧٧) نفسه .

البورى ، وكانت توقد الحوانيت والشوارع بالفوانيس ، ويعطى للفقراء فوانيس ، يحملونها فى أيديهم ولهم على ذلك درهم(٧٨) .

ومن أعياد النصارى التى شارك فيها المسلمون أيضا ، عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ، وجرت العادة أن يقوم العامة والسوقة بالطواف على أسواق البلد بالطبول والبوقات ليجمعوا ما ينفقوه فى خروجهم الى السجن ، لكن فى عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م اشتد الغلاء ، فامتنع التجار عن الدفع ، فأمر الخليفة الظاهر بأن يدفعوا ما جرت به العادة فى هذا اليوم وأن تطلق لهم الدولة ضعف ما أطلق للمحتفلين فى السنة الماضية ، فخرجوا الى السجن ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والحكايات كما خرج الخليفة الظاهر فى جميع من معه من خاصته وحرمه واقام يومين وشـــــهد هذا الاحتفال ، وأقام أهل الأسراق نحو الأسبوعين يطرقون الشوارع بالخيال والتماثيل ويطوفون فى القاهرة ليشاهدهم الخليفة الذى كتب لهم سجلا بأن لا يعارضهم أحد منهم فى ذهابه وعوده(٧٩) .

وفى عيد النيروز ، وهو مبدأ الســـــنة الشمسية ، كان الفاطميون يحتفلون أيضـــا مع الرعية فى هذا اليوم ، ففى خلافة الآمر التى اكتملت فيها الرسوم الفاطمية كان الاحتفال بهذا اليوم فى عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م غاية فى البهاء حتى أن الدولة كانت تطلق الكسوة المختصة بالنيروز من دار الطراز وتطلق كثير من الكسوات الرجالية والنسائية وجميع الأصناف المختصة بالموســم على اختلافها والفاكهة بجميع أنواعها(٨٠) .

---

(٧٨) نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .

(٧٩) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ .

(٨٠) نفسه ، صفحات ٢٦٨ — ٢٦٩ .

وخلاصة القول ، ان أهل الذمة قد شملتهم رعاية الدولة على الصعيد الاجتماعى وساكنوا المسلمين فى المدن القديمة والأمصار الاسلامية وظلوا يحتفلون بأعيادهم فى حرية تامة يشاركهم المسلمين هذه الاحتفالات فى بهجة وسرور .

وعلى الصعيد الثقافى برزت أسماء كثيرة لأهل الذمة فى مجالات مختلفة مؤكدة ما اتيح لهم من حرية التعليم والمشاركة الفعلية فى المجتمع الاسلامى ، فدرسوا أغلب العلوم العقلية على اختلاف أنواعها ، بل درسوا كل ما يعود الى اللغة العربية واليونانية من أصناف العلوم والمعارف والفنون كالنحو والتاريخ والجغرافيا والهندسة والطب على وجه الخصوص .

حرية التعليم :

ومن الثابت أن تحصيل العلم لم يكن رسميا ، فتركت الحرية الكاملة لتقرير ما يدرس من قبل الشيوخ ، كما أتيح للطلبة بشكل عام تلقى العلم حسبما أرادوا ، فكان لذلك أثر فى تنوع الدراسة وخلق نوعا من الثقافة الموسوعية(٨١) لاسيما أن هذه الظاهرة كانت أكثر وضوحا بداية من منتصف القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى مع العباسيين ، لذلك فاستفاد أهل الذمة من هذه الحرية ، ووجدنا نصارى بغداد يتمتعون بحرية التعليم داخل مدارسهم التى ازدهرت ازدهارا لا نظير له ، كذلك كانت لديهم مكاتب البيع فضلا عن ذلك مدارس الديارات التى ضمت آلافا من الدارسين والمعلمين ، فدرسوا كثيرا من العلوم العقلية الى جانب العلوم الدينية ، وقد الحق بهذه المدارس خزائن للكتب ، ومن

---

(٨١) كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٢٢ ، محمود اسماعيل سوسيولوجيا الفكر الاسلامى ، جا ، ص ١٥٨ .

أشهرها مدرسة الشماسية ودار الروم ومدرسة كليشوع ومدرسة دير مارمينو(٨٢) .

هذا فضلا عن تشجيع الحكام للعلم ، سواء كان حملته من العرب أو غير العرب ، من المسلمين أو غير المسلمين(٨٣) ، فأدى ذلك الى تردد الذميين على مدارس المسلمين واشتراكهم مع الطلبة المسلمين فى طلب العلم ويبدو أن هذا الأمر قد استشرى ، وتزامن مع اشتطاط الذميين فى عصر المتوكل ، لذلك شملت أوامره المعروفة تجاه أهل الذمة ، بأن لا يتعلم أولادهم فى مكاتب المسلمين والا يستعان بهم فى أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم(٨٤) .

غير أن ما سنه الخليفة المتوكل ، لم يستمر الا لفترة قصيرة والسبب فى ذلك ليس عدم قدرة الحكام المسلمين على أن تكون قراراتهم نافذة تجاه أهل الذمة ، بقدر تأثير فعاليات المجتمع المسلم على حياة الذميين وما أتيح لهم من حريات واسعة طوال العصر الاسلامى لدرجة كان عدم الامتثال لهذه القرارات لا يعد خروجا ولكنه كان استمرارا للحياة السهلة التى تعودوا عليها وشدهم اليها حالة التسامح القصوى من قبل المسلمين .

لذا قرأ كثير من النصارى على مدرسين وفقهاء مسلمين ، فمثلا تلقى حنين بن اسحق المتوفى عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م دروسا فى العربية على الخليل بن أحمد(٨٥) ، ودرس يحيى بن عدى بن حميد التكريتى نزيل بغداد المنطق على يد أبى نصر الفارابى(٨٦) ، كما

---

(٨٢) روفائيل بابو اسحق : احوال نصارى بغداد ، صفحات ١٣٦ – ١٣٧ .
(٨٣) محمود اسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .
(٨٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٩ ، ، صفحات ١٧١ – ١٧٢ .
(٨٥) ابن ابى اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ، ص ١٣٩ .
(٨٦) نفسه : ص ٢٢٧ .

قرأ الطبيب البغدادي يحيى بن عيسى بن جزلة قبل أن يسلم المتوفى عام ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م علومه على يد على بن الوليد شيخ المعتزلة(٨٧) .

كما كان من مظاهر حرية التعليم أيضا قيام بعض المسلمين بتلقى علومهم على أيدى الذميين ومنهم الطبيب البغدادى سالف الذكر الذى تعلم الطب لدى نصارى الكرخ(٨٨) وربما هذه الظاهرة ارتبطت بالذميين الذين أسلموا وظلوا على علاقة وثيقة بمؤسساتهم التعليمية وان عمل بعض الذميين فى صدر الاسلام وبعده لاسيما النصارى منهم فى تعليم أولاد المسلمين ، لكن فى أضيق الحدود ، فالحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق أثناء خلافة عبد الملك والوليد أراد مؤدبا لولده فخير بين المؤدب النصرانى والمسلم ففضل المؤدب المسلم(٨٩) .

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة ، وهى المام بعض المفكرين المسلمين بالتوراة والانجيل ، فيذكر ابن خلكان(٩٠) أن الفقيه الشافعى أبا الفتح موسى بن أبى الفضل الملقب كمال الدين كان مسلما عالما بشروح التوراة والانجيل ، وكان أهل الذمة يقرأون عليه ويشرح لهم هذين الكتابين شرحا وافيا حتى كانوا يقولون ، انهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله ، وهذا الأمر مرتبط الى حد كبير بمناخ التسامح الذى ساد دار الاسلام بشكل عام وسوف يقودنا ذلك الى ما كان يتم على الصعيد الفكرى فى أوقات معينة من المحاورات والمساجلات بين المسلمين وأهل الذمة دون أدنى

---

(٨٧) نفسه : ص ٢٦٠ .
(٨٨) نفسه : ص ١٧٦ .
(٨٩) الاصفهانى ، الأغانى ، ج ١٨ ، ص ٧٨ .
(٩٠) وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٣١٠ .

تعصب حول أخص خصوصيات المسائل العقيدية والتى بهر بها بعض المستشرقين ومنهم كلود كاهن(٩١) ، الذى أشـــــاد بروح التسامح آنذاك وقارن بينها وبين ما ساد الدولة البيزنطية فى تلك الفترة أيضا من تعصب واضطهاد تجاه الأقليات الدينية المخالفة ، وكذلك يشير آدم متز(٩٢) الى تسامح المســـــلمين فى حياتهم مع اليهود والنصارى ، الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى ، حتى أنه لحق بمباحث علم الكلام سنن لم تكن قط من مظاهر العصور الوسطى ، وهو علم مقارنة الملل حتى ألف المسلمون كتبا عدة فى وصف الأديان الأخرى .

الترجمـــــة :

وبديهى أن ينعم أهل الذمة فى هذا المناخ المفعم بالحـــــرية والتسامح بحرية التعليم ويسفر ذلك عن تألق نجمهم فى شتى المجالات ويظهر منهم علماء مبرزين ، واحتلت الترجمة اهتمام أهل الذمة لسابق معرفتهم بلغات مختلفة مثل اليونانية والسريانية ، ففى عصر الخليفة المأمون بين عامى (١٩٨ ــ ٢١٨ هـ / ٨١٥ ــ ٨٣٢ م) الذى شهد نشاطا واضحا فى الانفتاح على الحضارات السابقة ، نتيجة لما قام به الخليفة من تشجيع لهذه الحركة العلمية حيث كانت دار الحكمة مركزا للدراسة والبحث والترجمة ، وما قامت به الخلافة من عقد صفقات ثقافية مع الدولة البيزنطية لنقل نوادر التراث اليونانى . وكذلك انتقال تراث الهند من خلال مجهودات التجار فى عصر شهد ازدهار التجارة أثناء سيادة العالم الاسلامى على معظم البحار ، فظهرت عدة أسماء فى هذا المجال كان لها دور كبير فى ترجمة علوم الأوائل ، حتى قبل الدولة العباسية ، ومنهم

(٩١) تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ١١٦ .
(٩٢) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٨٤ .

ماسرجويه.وكان سريانيا يهوديا ، تولى فى أيام مروان بن الحكم نقل كتاب أهرت بن أعين من السريانية الى العربية وزاد فيه مقالتين باعتباره كان من الأطباء المبرزين وقتذاك فى البصرة ، ولما ولى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وجد هذا الكتاب فى خزائن كتب الشام ، فأخرجه للمسلمين للاستعانة به(٩٣) ، وأول من ابتدأ نقل الكتب فى الدولة العباسية الطبيب جورجيوس بن جبرائيل أيام الخليفة المنصور(٩٤) ، وهناك أيضا حنين بن اسحق ، وكان عالما بلغات أربع ، العربية ، واليونانية ، والفارسية ، والسريانية واستمر ابنه اسحق فى القيام بهذا العمل ، باعتباره متقنا لنفس اللغات ، كذلك حبيش الأعشم ابن أخت الطبيب حنين وتلميذه عيسى بن يحيى(٩٥) ، هذا فضلا عن يحيى بن البطريق الرهاوى ، ويبدو أن العمل بالترجمة من جانب بعض الأطباء قد أدى الى تلقيب بعضهم بالناقل أو الترجمان مثل يوسف الناقل وموسى بن خالد الترجمان الذى نقل عدد كبير من كتب جالنيوس(٩٦) .

وفى التنجيم ، برزت أيضا عدة أسماء منها ثيوفيل بن توما النصرانى ، الذى كان رئيس منجمى الخليفة المهدى فى بغداد لخبرته بحوادث النجوم وأحكامها ، كذلك عبد الله بن مسرور النصرانى المنجم وقسطا بن لوقا البعلبكى الذى كان الى جانب علمه بالهندسة والحساب يعمل بالتنجيم فى أيام الخليفة المقتدر(٩٧) .

---

(٩٣) ابن ابى اصيبعة ، طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .
(٩٤) نفسه ، ص ٣٧ .
(٩٥) نفسه ، صفحات ١٦٥ — ١٦٧ .
(٩٦) نفسه ، صفحات ١٧١ ، ١٧٦ ، ٢٤٢ .
(٩٧) القفطى ، اخبار العلماء ، صفحات ٧٧ ، ١٤٩ .

الطـــب :

كما برز عديد من الأسما فى مجال الطب ، لاسيما من النصارى على وجه الخصوص ، ومما يســـتلفت النظر أن الأطباء كانوا محصـــورين فى أســـرات معينة تمارس الطب وتلتحق بخدمة الخلفاء ، حيث كان هناك أطباء مختصـــون بالخلفاء ولذا منحوا الرواتب العليا والهبات الواسعة والمبالغ الطائلة ويكفى تدليلا على ذلك أن نذكر بعض المشاهير من الأطباء وقتذاك .

ومع الدولة الأموية كان « أوثال » طبيبا مميزا فى دمشق وهو نصرانى وكان خصيصا بالخليفة معاوية بن أبى سفيان(٩٨) . كذلك عمل « تياذوق » الطبيب فى خدمة الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان له عدة تلاميذ قدموا بعده ، ومنهم من أدرك الدولة العباسية مثل « فرات بن سخناتا » طبيب عيسى بن موسى ، الذى مات فى خلافة المنصور(٩٩) .

ومن أطباء الدولة العباســـية « خصـــيب » كان من أهل البصـــرة واشـــتهر فى عهد أبى العباس السفاح وبداية عصـــر المنصـــور ، واحتكر الأطباء الذين ينتمون الى مدينة جنـد يسـابور الاشراف على تطبيب الخلفـاء من أسرة معينـة تبدأ مع المنصـــور حتى مع وجود بعض الأســـماء القليلة التى عملت الى جانبهم وبدأت هذه الأســـرة بالطبيب « جورجيوس بن جبرائيل » الذى كان حظيا لدى المنصـــور ونال من جهته أموالا طائلة(١٠٠) ، كما لحق بختشيوع بن جورجيس بأبيه فى معرفته

(٩٨) ابن ابى اصيبعة ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤ .
(٩٩) القفطى ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .
(١٠٠) ابن ابى اصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

بالطب وخدم الخليفة الرشـــيد ومن بعده من الخلفــاء وكانت منزلته رفيعة عند الرشـــيد حتى قال : (من كانت له حــاجة فليخاطب فيها جبرائيل ، لانى افعل كل ما سألنيه ويطلبه منى)(١٠١) كما جعله الرشـــيد رئيســا للأطباء وظل يعمل طبيبا للأمين الذى وهب له أموالا كثيرة وأكرمه ، وكان لا يأكل ولا يشرب الا باذنه(١٠٢) . ولم يكن عمل هؤلاء الأطباء مرتبطا فقط بالخلفاء ، بل عملوا أيضــا لدى ولاة العهد أخوة الخلفاء وعمومتها وقرابتها ووجوه الموالى والقواد(١٠٣) ، لذا كان رزق بختشيوع يشمل عدة جهات ، فكان يحصل على عشرة آلاف درهم من رسم العامة فى كل شهر ، ومائة وعشرين ألف درهم من رسم الخاصة فى المحرم من كل سنة(١٠٤) وقد أعطاه الرشيد عندما شفى جاريته خمسمائة الف درهم(١٠٥) .

ثم أفل نجم هذه الأسرة مع الخليفة المأمون ، لتحل محلها أسرة أخرى ، وهى أســرة ماسوية بن يوحنا الذى كان يعمل بالصيدلة فى عصر الرشـــيد واتصــل بأسرة بختشـــيوع وارتبط معها برباط المصــاهرة ثم عمل ولداه لدى الخلفاء فعمل ميخائيل عند المأمون أما يوحنا فعمل طبيبا للمأمون أيضــا حتى المتوكل(١٠٦) ، كما كان سلمويه يعمل طبيبا لدى الخليفة المعتصم الذى أكرمه كثيرا ، ويبالغ المؤرخون(١٠٧) فى المنزلة التى حظى

---

(١٠١) القفطى ، اخبار العلماء ، ص ٩٣ .
(١٠٢) نفسه ، ص ٩٨ .
(١٠٣) نفسه ، ص ٩٧ .
(١٠٤) ابن ابى اصيبعة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٨ .
(١٠٥) القفطى ، المصدر السابق ، ص ٩٤ .
(١٠٦) ابن ابى اصيبعة ، المصدر السابق : صفحات ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٧ .
(١٠٧) نفسه ، صفحات ١٠٥ — ١٠٦ .

بها هذا الطبيب حتى ان التوقيعات التى كانت ترد الى الدواوين بتوقيعات المعتصم كانت بخط سلموية وكذلك كل ما يرد على الأمراء والقواد من أمور وتوقيعات ، كما أن اخاه ابراهيم تولى الاشــراف على بيوت الأموال فى البلاد .

لكن سرعان ما عادت أسرة بختشيوع الى الظهور فى عهد الخليفة الواثق ونتيجة للثراء الفاحش الذى وصل اليه هذا الطبيب استلفت انظار الجميع فتحول الخليفة عنه بعض الوقت ، ومع اعتلاء الخليفة المتوكل عرش الخلافة صلحت حاله وبلغ من الرفعة وعظم المنزلة ما لم يبلغه أحد ، حتى أنه كثر ماله ، وكان يتبارى مع الخليفة المتوكل فى الزى والطيب والضيافات(١٠٨) .

كما عمل يوحنا بن بختشيوع لدى الموفق بالله طلحة اخى الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٨ هـ / ٨٧٠ — ٨٩٣ م) وكان يسميه الموفق مفرج الكروب ، وكانت منزلته رفيعة لدى الموفق ، حتى انه كان يشكو له ما يجرى عليه فى ضياعه واملاكه فيكتب له الموفق بما يرد شكواه ويصلح امره(١٠٩) ، وعمل لدى الخليفة المقتدر الطبيب بختشيوع بن يوحنا الذى كان خصيصا له ، وانعم عليه الانعامات والاقطاعات من الضياع وظل بعده فى خلافة الراضى ، كذلك عمل فى خدمة المقتدر جبرائيل بن عبد الله بختشيوع الذى ورث هذه المهنة ايضا عن اجداده(١١٠) .

وليس معنى هذا العرض السابق أن هذا المجال كان وقفا على النصارى من دون المسلمين ، فقد حفل كتاب ابن ابى اصيبعة

(١٠٨) ابن ابى اصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٦٢ .
(١٠٩) نفسه : ص ١٦٨ .
(١١٠) نفسه : صفحات ١٦٩ ، ١٧٢ .

بأسماء كثيرة للأطباء المسلمين الذين عملوا فى هذه المهنة ، لكن كان الغرض هو محاولة تركيز الضوء على هذه الطائفة التى سمح لها أن تختص بخدمة الخلفاء لنؤكد حقيقة طالما ترددت طوال البحث وهى روح التسامح لدى المسلمين التى شملت كافة أوجه النشاط التى عمل بها اهل الذمة .

أما فى مصر ، فقد أسفر الفتح العربى عن استخدام اللغة القبطية التى سمح العرب باستخدامها حتى طغت على اللغة اليونانية ، التى كانت هى اللغة السائدة أيام البيزنطيين وسرعان ما أصبحت اللغة العربية هى اللغة المعمول بها فى الدواوين الرسمية كما أسلفنا ، فبدأ الذميون يتعلمون العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم ، ولم يبدأ القبط فى ترك لغتهم الا فى أواخر القرن الرابع الهجرى ــ العاشر الميلادى ، بدليل وجود بعض المؤلفات سواء فى الموضوعات الدينية أو فى التاريخ كتبها الأقباط باللغة العربية مثل ما كتبه « سعيد بن البطريق » تاريخه الذى يعد من اقدم تواريخ النصارى فى مصر الاسلامية ، هذا فضلا عما كتبه « ساويرس ابن المقفع » أسقف الأشمونيين باسم « سير الآباء البطاركة » أو « سير البيع المقدسة » ، وهذا مما يؤكد حقيقة هامة وهى مدى ما وصلت اليه اللغة العربية آنذاك(١١١) .

ومما يؤكد أيضا انتشار اللغة العربية بين يهود مصر ، أن وثائق الجنيزة كتبت بالعربية بحروف عبرية ، وفى خلال عصر الولاة كان هناك بعض اليهود الذين تألقوا فى الحياة الثقافية منهم ماشا الله (١٥٣ ــ ٢٠٥ هـ / ٧٧٠ ــ ٨٢٠ م) وهو فلكى شهير ، كما بدأت فى تلك الفترة الدراسات العبرية تحتل مكانة هامة لدى يهود مصر(١١٢) .

---

(١١١) قاسم : أهل الذمة ، ص ٣٨ .
(١١٢) Mann, The Jews, P. 14.

ومع الدولة الطولونية ، ظهر كثير من المهندسين والأطباء ومنهم المهندس القبطى سعيد بن كاتب الفرغانى ، المهندس القبطى الذى استخدمه ابن طولون فى تصميم بناء جامعة فى مدينة القطائع وكافأه على هذا العمل بمبلغ عشرة آلاف دينار ، كما أجرى عليه الرزق الى أن مات(١١٣) ، كما استخدم ابن طولون عدد من الأطباء من النصارى واليهود على السواء ومنهم « سعيد بن نوفيل » الطبيب النصرانى والحسن بن زيرك اليهودى ، وكان فى بعض الأحيان يجتمع أطباء البلد للمشاورة فى أحوال ابن طولون الصحية الى جانب أطباء الخاص(١١٤) .

كما لمعت عدة أسماء من الذميين فى العصر الاخشيدى ، فبرز الطبيب اليهودى « موسى بن العازار » الذى توفى عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م(١١٥) ، كما ظهر من أعلام اليهود ونوابغهم فى هذه الفترة « سعديا الفيومى » (٢٧١ — ٣٣١ هـ / ٨٨٣ — ٩٤٣ م) الذى ينتسب الى مدينة الفيوم ، وكان سعديا طبيبا ماهرا وفيلسوفا ولغويا وشاعرا ، بالاضافة الى كونه تاجرا ، استطاع ان يتبوأ مركزا مرموقا فى بغداد بفضل علمه وثقافته الى أن وصل الى وظيفة جاءون سورا والرئيس الدينى لجماعة اليهود ، وقام أيضا(١١٦) بترجمة التوراة الى اللغة العربية ، فضلا عما الفه من كتب فى النواحى الدينية الأخرى(١١٧) ، كما أصبح سعديا أول فلاسفة اليهود الربانيين والمتحدث باسمهم ضد

---

(١١٣) البلوى ، سيرة احمد بن طولون ، صفحات ١٨١ ، ١٨٣ : المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، صفحات ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(١١٤) نفسه ، صفحات ٣١٩ ، ٣٢٩ .

(١١٥) ابن ابى أصيبعة ، ، طبقات الأطباء ، صفحات ٥٤٤ — ٥٤٦ .

(١١٦) Goitein, Jews and Arabs, P. 118.

(١١٧) Mann, Op. Cit., 1, PP. 14 — 15.

طائفة القرائين على يد عنان بن داود(١١٨) ، وظهر من النصارى « سعيد بن البطريق » الذى برع فى الطب الى جانب علمه الغزير بعلوم النصارى ومذاهبهم ، فألف ايضا فى التاريخ ، كما تولى بطريركية الملكانية عام ٣٢١ هـ / ٩٣٠ م(١١٩) .

وفى العصر الفاطمى الذى اتسم بالتسامح تجاه أهل الذمة ، فمن الطبيعى أن يحرزوا مكانة ممتازة فى الحياة الثقافية ، فبرزت عدة أسماء من اليهود والنصارى على السواء الذين امتهنوا الطب ، منهم « الحقير النافع » طبيب الخليفة الحاكم الذى كان يعمل بمداواة الجروح وأظهر براعة فائقة في هذا الأمر حتى اكرمه الحاكم وأعطاه ألف دينار وخلع عليه ولقبه بهذا اللقب السابق وجعله من أطباء الخاصين الذين كانوا أطباء يهودا ونصارى منهم منصور بن سهلان ابن مقشر النصرانى(١٢٠) . كما خدم الخليفة الحافظ أطباء من أهل الذمة ومنهم أبو منصور اليهودى وابن قرفة النصرانى وطلب منهما تحضير جرعة قاتلة لابنة الحسن الذى خرج عليه فرفض اليهودى وفعلها النصرانى ، وبعد فترة قتل الخليفة الطبيب النصرانى ، بينما كافأ اليهودى بترقيته الى منصب رئيس أطباء البلاط(١٢١) .

وفى الأندلس ، ظهر عدد كبير من الأطباء اليهود على وجه الخصوص ، الذين تمتعوا بالتسامح والرعاية من قبل الحكام والخلفاء ومنهم :

---

(١١٨) القوصى ، اليهود ، صفحات ٤٨ — ٤٩ .

(١١٩) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(١٢٠) القفطى ، أخبار العلماء ، ص ١٢٢ .

(١٢١) المقريزى ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

حسـيداى بن إسحق بن شبروط ، كان طبيبا مبرزا فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ، قام بترجمة كتاب ديسقوريوس عن الأعشاب الطبية من اليونانية الى العربية ، كذلك كان يهتم إلى جانب صناعة الطب بفقه اليهود وتاريخهم(١٢٢) ، والطبيب ابن بكلارش اليهودى ، ألف كتاب « المجدولة فى الأدوية المفردة » الفه بمدينة المرية(١٢٣) ، والطبيب مروان بن جناح ، كان له عناية بالطب الى جانب معرفة بالمنطق والتوسع فى علوم العربية والعبرية ، وله من الكتب ، « كتاب التلخيص » وقد ضمنه ترجمة للأدوية المفردة وتحديد المقادير المستعملة فى صناعة الطب والأوزان والمكاييل(١٢٤) ، والطبيب أبو الفضل حسيداى بن يوسف ابن حسيداى ، كان من أشراف اليهود فى الأندلس عنى بالعلوم على اختلافها ومنها الطب ثم الطبيب الرئيس موسى بن ميمون كان أوحد أهل زمانه فى صناعة الطب وفى اعمالها وكان له عدد من الكتب منها « اختصار الكتب الستة عشرة لجالينوس » ومقالة فى البواسير وعلاجها ومقالة فى تدبير الصحة ومقالة فى السموم »(١٢٥) ، وغيرهم كثيرون استطاعوا أن يستفيدوا من الظروف المتاحة لهم من حرية وتسامح ليحملوا لواء الثقافة الى جانب اعداد غفيرة من المسلمين الذين شادوا الحضارة الاسلامية فى مختلف أرجاء الدولة المتسعة .

---

(١٢٢) ابن ابى اصيبعة . طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

(١٢٣) نفسه ، ص ٥٢ .

(١٢٤) نفسه ، ص ٥٠ .

(١٢٥) نفسه ، ص ٥٢ .

الخاتمة

تمخضت الدراسة عن عرض للاطار النظرى والتطبيقى لمعاملة اهل الذمة ، تناولنا فى البداية ما جاء فى القرآن والسنة النبوية وما وضعه الفقهاء فيما يخص الطوائف الدينية من غير المسلمين ثم تناولت الدراسة كافة الجوانب التطبيقية من حرية دينية ومشاركة فى وظائف الدولة ودورهم فى الحياة الاقتصـــــادية والاجتماعية والثقافية من خلال المادة التاريخية المبعثرة فى بطون المصادر وكذا دراسة المراجع التى من خلالها أمكننا رسم صورة لوضعية أهل الذمة فى دار الاسلام .

ويتضح من دراسة النصوص القرآنية ، أن الاســـــلام كان صريحا ، فيما يتعلق بالدعوة الى الاسلام ، التى يجب أن تكون من خلال الاقناع وهى نفس السياسة التى سار عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما سار العرب الفاتحون على نفس المنهاج القويم فى الدعوة .

وانتهينا الى أن عهود الأمان التى أبرمت مع أهالى البلاد المفتوحة قد أتاحت كافة الحريات الدينية والمدنية التى لم تتح لهذه الشعوب قبلا ، وارتبطت هذه الحريات بالجزية التى روعى فيها دائما التخفيف كذلك قد تقرر لغير المسلمين بمقتضى هذا الصلح حيازة اراضيهم مقابل دفع ضريبة الخراج ، واذا كان اهل الذمة قد التزموا ببعض الواجبات ، فهى لا يمكن أن تقارن بما أتاحته لهم

الدولة الاسلامية من امتيازات اقلها التمتع بمرافق الدولة ، حتى هذه الواجبات ومنها ضيافة جند المسلمين يتضح منها الرفق أما الشروط الأخرى من منعهم من الغش وغيره فهى أمور طبيعية مرتبطة بمساكنة أهل الذمة للمسلمين على أرض واحدة ، كما أن الجزية التى تعتبر شرطا لحماية الذمى فعدم الوفاء بها لا يعد نقضـــا للعهـــد .

وفيما يخص الاطار الذى وضعه الفقهاء وضـــمنوه بعض الشروط التى بموجبها يتم عقد الذمة انتهينا بعد دراسة الشرط الخاص بالغيار أن ما تعرض له اهل الذمة من قيود صدرت فى صورة أوامر ملزمة ، كان الســـبب فيها تصرفاتهم نتيجة لعدم التزامهم بالشروط السهلة المفروضة عليهم في البداية ، ثم زيادة سطوتهم وخيانتهم للمسلمين مما أدى الى اصدار مثل هذه الأوامر في أوقات متفرقة والتى لم يلتزم بها فى الغالب الا فى السنوات التى صدرت فيها .

أما المسألة الثانية الخاصة ببناء الكنائس ، فقد خلصنا الى أن الدولة الاسلامية قد اتاحت لأهل الذمة ، لاسيما النصارى بناء الكنائس فى المدن الجديدة ، مع أن هذا الأمر غير مسموح به فى خطط المسلمين ، مما يؤيد أن هذه الأوامر لم تنفذ وكانت مجرد اطارا نظريا ، كما كانت هذه الكنائس تشيد بموافقة الحكام .

وفيما يخص الحرية الدينية ، وجدنا ان المسلمين قد أتاحوها لأهالى البلاد المفتوحة ، تلك التى طالما افتقدوها ، فقد جاء الاسلام فى وقت ليس فيه حرية فى كافة أرجاء المعمورة بل اضــــطهاد وتعذيب ، ثم شملت سماحة الاسلام كل هذه الأرجاء مما جعل كثيرا من أهل الذمة يدخلون فى الاسلام ، أما الذين ظلوا على دينهم فتمتعوا بحرية ممارسة شـــعائرهم وطقوســـهم داخل معابدهم

وكنائسهم وبيعهم بحرية تامة لهم أنظمتهم الداخلية التى لا دخل للدولة الاسلامية بها .

أما عن وظائف أهل الذمة فى الجهاز الادارى ، فقد سمح لهم مناخ الحرية الذى عاشوا فيه فى دار الاسلام من تصدرهم للوظائف العليا فى ادارة الدولة الاسلامية فكان منهم الكتاب وعمال الخراج وقادة الجيوش والوزراء فى بعض الأحيان .

كما أن دورهم فى الحياة الاقتصادية قد تأثر بكل النواحى السابقة فبديهى أن ينعكس ذلك على مزاولتهم لأعمالهم واسهاماتهم بكثير من الأعمال فى المجتمع الاسلامى وأحوال المنطقة وقتئذ من ازدهار بشكل عام خاصة الذى وضح ايما وضوح على التجارة ليؤكد قوة الدولة الاسلامية على الصعيد السياسى وقدرتها على أن تكون دولة عالمية وسيدة للبحار ، كل ذلك وغيره ساعد على ظهور أهل الذمة بشكل واضح فى المجال الاقتصادى وتألقوا على وجه الخصوص فى العمل بالتجارة ، وما صاحبها من اعمال ترتبت على نشاط التجارة مثل الصيرفة والجهبذة اللتين كان لأهل الذمة من يهود ونصارى على وجه الخصوص دور ملحوظ فيهما ، لعزوف المسلمين عن العمل بهذه الأعمال لعلاقتها بالربا .

وعلى الصعيد الاجتماعى ، فقد أظلتهم الدولة بالرعاية الاجتماعية ، وانفقت على مساكين أهل الذمة من أموال الصدقات وساكنهم المسلمون فى المدن القديمة والأمصار الاسلامية ، كما تركوهم يحتفلون بأعيادهم فى حرية تامة وشاركهم المسلمون فى هذه الاحتفالات فى بهجة وسرور كما شاركهم الحكام أيضا باهتمام كبير .

ونفس الشيء انتهينا اليه على الصعيد الثقافى ، فقد أتيح لهم أن يظهروا فى هذا المجتمع من خلال ما أتيح لهم بشكل عام من حرية التعليم وحرية الرأى مما أدى الى ظهور كثير من الأسماء فى مجالات مختلفة لأطباء ومهندسين مبرزين من اليهود والنصـــارى على السواء ، حتى أن كتب المسلمين قد خصصت وبدون تعصب جزءا من مؤلفاتهم لالقاء الضوء على النابغين منهم مما يؤكد روح التسامح التى توفرت لهم آنذاك .

وأخيرا ، لنا أن نقرر أن أهل الذمة قد نعموا بجميع الحريات والحقوق فى دار الاسلام بما أتيح لهم من امتيازات سمحت لهم كما أسلفنا بالقيام بنشاط كبير على كافة الأصعدة السابقة مما ترتب عليه تمتعهم بوضعية اجتماعية مميزة عاشت فى كنف المسلـــمين حياة سهلة ، عايشوا المسلمين واختلطوا بهم ، واذا كانوا قد تعرضوا لبعض النواهى من خلال الأوامر التى صدرت فهذا يرجع أساسا الى اشتطاطهم ف الرغبة فى الحصول على أكثر مما ينبغى من حقوق وحريات من ناحية وتسامح المسلمين من ناحية أخرى .

ثبت المصادر والمراجع

المصـــــادر

القـــــرآن الـــــكريم

ابن الاثير :

محمد بن عبد الكريم الشيبانى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) .
الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٩٨٣ .

ابن الجـــوزى :

أبو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) .
المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٩٢ .

ابن حوقل :

أبو القاسم محمد البغدادى (٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) .
المسالك والممالك ، ليدن ١٨٧٣ .

ابن الأخـــوة :

محمد بن محمد بن أحمد القرشى ، ت ٧٢٩ هـ .
معالم القرية فى أحكام الحسبة ، القاهرة ١٩٧٦ .

ابن خرداذبة :
أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (توفى حول عام ٣٠٠ هـ) .
المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ م .

ابن الخطيب :
(لسان الدين) الاحاطة فى أخبار غرناطة .
تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ م .

ابن خلدون :
عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ .
المقـــــدمة .

ابن خلكان :
شمس الدين ابو العباس (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) .
وفيات الأعيان ، القاهرة .

ابن الصيرفى :
على بن منجب ، الاشارة الى من نال الوزاره
القاهرة ١٩٢٤ .

ابن عبد الحكم :
أبو محمد عبد الله بن الحكم ، (ت ٢١٤ هـ) .
سيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ١٩٢٧ .
فتوح مصر وأخبارها ، طبعة ١٩٢٠ .

ابن العـــــبرى :
تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ .

ابن عــــــذارى :
محمد بن عذارى المراكشى (توفى أوائل القــــــرن الثامن الهجرى) .
البيان المغرب فى أخبار المغرب ، بيروت ١٩٦٧ .

ابن القوطيـــة :

محمد بن عمر بن عبد العزيز (ت ٣٦٧ هـ) .
تاريخ افتتاح الأندلس ، بيروت ١٩٨٢ .

ابن القيم الجـــوزية :

(شمس الدين ت ٧٠١ هـ) .
أحكام أهل الذمة ، نشره صبحى الصالح ، دمشق ١٩٦١ .

ابن كثير :

(عماد الدين أبو الفدا اسماعيل) ت ٧٧٤ هـ .
تفسير القرآن العظيم ، القاهرة ١٩٨٠ .

ابن المقفع :

(ساويرس أسقف الأشمونيين) .
تاريخ بطاركة الاسكندرية ، نشـــره يسى عبد المسيح ، أسولدبرمستد ، القاهرة ١٩٤٣ .

ابن مماتى :

قوانين الدواوين ، نشره سوريال ، القاهرة ١٩٤٣ .

ابن منظور :

جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) .
لسان العرب ، بيروت ١٩٥٦ .

ابن ميســـر :

أخبار مصر ، القاهرة ١٩٨١ .

ابن هشـــام :

أبو محمـــد عبد الملك بن هشـــام المعافرى المتوفى ٢١٣ هـ .
الســـيرة النبوية ، قدم لها وعلق عليها طه عبد الرءوف ، القاهرة ١٩٧٩ .

ابن أياس :

محمد بن أحمد بن أياس المصرى .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٨٢ .

ابن ابى اصيبعة :

موفق الدين أبو العباس ، (ت ٦٦٨ هـ) .
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥ .

ابو صالح الأرمنى :

كنائس واديرة مصر ١٨٩٤ .

ابو العرب :

طبقات علماء أفريقية ، تونس ١٩٦٨ .

أبو الفرج الأصفهانى :

(ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) تحقيق عبد الكريم ابراهيم الغرباوى ، اشراف محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٢ .

أبو المحاسن :

(جمال الدين بن تغرى بردى الأتابكى) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٣ .

أبو يوسف :

يعقوب بن ابراهيم (١١٣ — ١٨٢ هـ) .
كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٩٧ هـ .

البلاذرى :

(أحمد بن جابر) .
فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ .

البـــــلوى :

(أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى .
سيرة أحمد بن طولون ، دمشق ١٩٣٩ .

الجهشـــــيارى :

محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ) .
الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ .

الرقيق القيراونى :

تاريخ افريقيـــــة والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٨ .

سعيد بن البطريق :

(افيشوس ت ٣٢٨ هـ) .
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٩ .

الســــــيوطى :

(جلال الدين بن عبد الرحمن) .
حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٢٩٩ هـ

الشـــــابشتى :

ابو الحسين على بن محمد المتوفى ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م .
الديارات ، حققه وعلق عليه كوركيس عواد دمشق ١٩٥١ .

الضـــــبى :

بغية الملتمس فى تاريخ علماء الأندلس .
مدريد ١٨٨٤ .

الطـــــبرى :

محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)
تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٧٩ .

عريب بن ســـــعد :

صلة تاريخ الطبرى ، ليدن ١٨٩٧ .

القفطى :

اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٨٠٢ .

القلقشــــــندى :

(شهاب الدين أحمد بن على ، (ت ٨٢١ هـ) .
صبح الأعشى فى صناعة الانشا
طبعة دار الكتب ابتداء من سنة ١٩١٣ .

الــــكندى :

(أبو عمر محمد بن يوسف الكندى) .
كتاب الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ .

المـــــاوردى :

(ابو الحسن على بن محمد بن حبيب البصــرى البغدادى)
ت عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .
الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ هـ .

مجهــــول :

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، مدريد ١٨٦٧ .

المراكشى :

(عبد الواحد ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، حققه وعلق عليه سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٩ .

المســـــعودى :

على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦) .
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٣ .

مسكوية :

كتاب تجارب الأمم ، القاهرة ١٩١٥ .

المقدسى :

شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٣٨٨) .
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٩ .

المقريزى :

تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ) .
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، القاهرة ١٩٦٧ .

اغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٤٨ .

امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والاموال والحفدة والمتاع ، صححه وشرحه محمود محمد شاكر ،القاهرة ١٩٤١ .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت .

ناصر خسرو :

سفرنامة ، برلين ١٩٤٥ .

هلال الصابى :

أبو الحسن ، المحسن بن ابى اسحق (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) .
تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ .

ياقوت :

معجم الأدباء ، القاهرة ١٩٦٥ .
معجم البلدان بيروت ١٩٨٢ .

يحيى بن آدم :

(ت ٢٠٣ هـ) كتاب الخراج ، الطبقة الثانية .

يحيى بن سعيد :

صلة تاريخ أوتيخا المســــمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، تحقيق شيخو فى جزءين ، بيروت ١٩٠٩ .

المراجـــع العـــربية

ابراهيم العـــــدوى :

نظام المواطنة فى الاسلام ومنجزاته للحضـــارة العربية من مجموعة البحوث فى تاريخ الحضارة الاســـلامية ، القاهرة ١٩٨٣ .

احمد عيسى :

مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين ، فصلة من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٦ ، ١٩٦٤ .

الدورى :

تاريخ العراق الاقتصـــــادى فى العراق فى القرن الرابع الهجرى ، بغداد ١٩٤٨ .

ارنولد :

الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم وآخرين ، القاهرة ١٩٤٧ .

الريس :
الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٨٥ .
روفائيل بابو اسحق :
أحوال نصارى بغداد فى عهد الخلافة العباسـيـة ، بغداد ١٩٦٠ .
السيد عبد العزيز سالم :
تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة فى قرطبة ، بيروت ١٩٦٢ .
بتلر :
فتح العرب لمصر ، تعريب فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣ .
ترتون :
اهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة حســـن حبشى ، القاهرة ١٩٦٧ .
جروهمان :
أوراق البردى العربية ، ترجمة حســن ابراهيم حســـن وعبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٣٤ .
جورجى زيدان :
التمدن الاســـلامى ، القاهرة ١٩٥٨ .
حسن أحمد محمود :
الاسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى ، القاهرة ١٩٦٨ .
ســـيدة كاشــف :
مصر فى فجر السلام ، القاهرة ١٩٨٦ .
مصر فى عهد الاخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ .

سـرور :

تاريخ الحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٥ .
قيام الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ١٩٤٦ .

عطية القوصى :

أضواء على تجارة الكارم ، فصلة من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ٢٢ ، ١٩٧٥ .
اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، الكويت ١٩٧٧ .

على سامى النشار :

الفكر اليهودى وتأثره بالفلسفة الاسلامية ، الاسكندرية ١٩٧٢ .

على عبد الواحد وافى :

بحوث فى الاسلام والمجتمع ، القاهرة ١٩٧٧ .

قاسم عبده قاسم :

أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٩ .
اليهود فى مصر ، القاهرة ١٩٨٧ .

كارل بروكلمان :

تاريخ الشعوب الاسلامية ، نقله الى العربية أمين فارس — منير البعلبكى ، بيروت ١٩٦٩ .

كلود كاهن :

تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٨٣ .

مـاجد :

الحاكم بأمر الله ، القاهرة ١٩٥٩ .
المستنصر بالله ، القاهرة ١٩٦٠ .

مــــتز :

الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، بيروت .

محمد حميد الله :

مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخـــلافة الراشدة ، القاهرة ١٩٤١ .

محمود اسماعيل :

سوسيولوجيا الفكر الاسلامى ، الدار البيضاء ١٩٨٠ .

مــــراد فـــرج :

القراءون والربانون ، القاهرة ١٩١٨ .

مؤنس :

فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ .

يوليوس فلهوزن :

تاريخ الدولة العربية ، ترجمة عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ .

المراجـــع الأجنبيـــة

Ashtor :

Histoire du prix et des salaires dans l'orient médiéval Paris, 1969.

Matériaux pour l'histoire des prix dans l'Egypte médiéval. JESHO. V. 1. 1963.

Cohen:

A Jawish-self govrnments in Medieval Egypt, 1980

Dubnov. S. :

History of the Jews London 1968.

Encyclopedia of Islam, 2ed. art Dhimma. :

Fischel, :

Jews in the economic and poilitical life of the Medieval Islam, London 1968.

Goitein. S. :

Jews and Arabs, Their Contact Through The Ages, New York 1955.

Mediterranean Society, Barkely, Los Anglo, 1967.

Mann, :

The Jews in Egypt and Palestine Under The Fatimids, Oxford 1967.

Nissim Rejwan v :

The Jews of Iraq, 1985

المحتـــوى

الصفحة

الصفحة

الصفحة

صدر فى هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ

د . عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر

إعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة

إعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة

د . محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى

عليه عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ١

لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى

د . عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية

د . على بركات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل

د . محمد أنيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية

محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية

شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير

د . نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان

د . عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة

د . سيدة إسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الإسلامى

د . على حسنى الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر

د . حلمى أحمد شلبى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى

د . محمد نور فرحات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية

د . على السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين

د . أحمد محمود صابون

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن

د . محمد أنيس

٢١ ـ التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ١

توفيق الطويل

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر

جمال بدوى

٢٣ ـ التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ٢

توفيق الطويل

٢٤ ـ الصحافة الوفدية

د . نجوى كامل

٢٥ ـ المجتمع الإسلامى والغرب

تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين

ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة

د . سعيد إسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ١

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ٢

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ ـ مصر فى عهد الاخشيديين

د . سيدة إسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر فى عهد محمد على

د . حلمى أحمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية

شكرى القاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٢

لمعى المطيعى

٣٣ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى

د . خالد الكومى

٣٤ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية

د . يونان لبيب رزق

٣٥ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة

عبدالحميد توفيق زكى

٣٦ـ المجتمع الإسلامى والغرب جـ ٢

تأليف : هاملتون جب وهارولد بروين

ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى

٣٧ـ الشيخ على يوسف

تأليف : د . سليمان صالح

٣٨ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى

د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم

٣٩ـ قصة احتلال محمد على لليونان

د. جميل عبيد

٤٠ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨

د . عبدالمنعم الدسوقى الجميعى

٤١ـ محمد فريد الموقف والمأساة

د . رفعت السعيد

٤٢ـ تكوين مصر عبر العصور

محمد شفيق غربال

٤٣ـ رحلة فى عقول مصرية

إبراهيم عبد العزيز

٤٤ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى

د . محمد عفيفى

٤٥ـ الحروب الصليبية جـ ١

تأليف : وليم الصورى

ترجمة : د . حسن حبشى

٤٦ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٦ : ١٩٥٧

د . عبدالرؤوف أحمد عمرو

٤٧ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث

د . لطيفة محمد سالم

٤٨ـ الفلاح المصرى

د . زبيدة عطا

٤٩ـ العلاقات المصرية الإسرائيلية

د . عبد العظيم رمضان

٥٠ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية

د . سهير اسكندر

٥١ـ تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية

اعداد : د . عبد العظيم رمضان

٥٢ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر

تأليف : د . إلهام محمد على ذهنى

٥٣ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك

د . محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى

د . محمد عفيفى

٥٥ ـ الحروب الصليبية جـ٢

تأليف : وليم الصورى

ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى

٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على

د . حلمى أحمد شلبى

٥٧ ـ مصر الإسلامية وأهل الذمة

د . سيدة إسماعيل كاشف

٥٨ ـ أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة

د . إبراهيم عبدالله المسلمى

٥٩ ـ الرأسمالية الصناعية فى مصر

د . عبد السلام عبدالحليم عامر

٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية

عبد الحميد توفيق زكى

٦١ ـ تاريخ الاسكندرية

د . عبد العظيم رمضان

٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٣

لمعى المطيعى

٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور

إعداد : د . عبد العظيم رمضان

٦٤ ـ مصر وحقوق الإنسان

د . محمد نعمان جلال

٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية

د . سهام نصار

٦٦ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى

د . نريمان عبد الكريم أحمد

٦٧ـ الأصول التاريخية لمساعى السلام العربية الإسرائيلية

د . عبد العظيم رمضان

٦٨ـ الحروب الصليبية جـ٣

تأليف : وليم الصورى

ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشى

٦٩ـ نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية

د . محمد أبو الأسعاد

٧٠ـ أهل الذمة فى الإسلام

تأليف : أ. س. تريتون

ترجمة : د. حسن حبشى

٧١ـ مذكرات اللورد كليرن

ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٧٢ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى

د . أمينة أحمد إمام الشوربجى

٧٣ـ تاريخ جامعة القاهرة

د. رؤوف عباس حامد

٧٤ـ تاريخ الطب والصيدلة

د . يحيى سمير الجمال

٧٥ـ أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول

د . سلام شافعى محمود

٧٦ـ دور التعليم فى مصر

د . سعيد إسماعيل على

٧٧ـ الحروب الصليبية جـ٤

تأليف : وليم الصورى

ترجمة : د . حسن حبشى

٧٨ـ تاريخ الصحافة السكندرية

نعمات أحمد عثمان

٧٩ـ تاريخ الطرق الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر

تأليف : فريد يونج

ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال

٨٠ـ قناة السويس والتنافس الاستعمارى

د . السيد حسين جلال

٨١ـ تاريخ السياسة والصحافة من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر

د . رمزى ميخائيل

٨٢ـ مصر فى فجر الإسلام

د . سيدة إسماعيل كاشف

٨٣ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ١

أحمد شفيق باشا

٨٤ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ٢ ـ القسم الأول

أحمد شفيق باشا

٨٥ ـ تاريخ الاذاعة المصرية

د . حلمى احمد شلبى

٨٦ ـ تاريخ التجارة المصرية

د . أحمد الشربينى

٨٧ ـ مذكرات اللورد كليرن جـ ٢

ترجمة : د . عبد الرؤوف احمد عمرو

رقم الايداع ١٩٩٥/٩٨١٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 10 — 4582 — 3

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا الكتاب

يتناول فى الفصل التمهيدى تحديد المفهوم الخاص بأهل الذمة. والمنهج الإسلامى فى معاملتهم. أما الفصل الثانى فيتناول الحرية الدينية والمدنية التى تمتع بها أهل الذمة فى الدولة الإسلامية بالمقارنة بما نالوه من هذه الحريات قبل الإسلام. أما الفصل الثالث فتناول الوظائف التى شغلها أهل الذمة فى العصر الإسلامى. وتناول كل من الفصلين الرابع والخامس دور أهل الذمة فى الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية، وأحوالهم الاجتماعية والثقافية. وكل ذلك بالإستناد إلى المصادر التاريخية الأولية.

وبهذا الكتاب تكون هذه السلسلة قد أظهرت إهتمامها بالعلاقة بين المسلمين والأقباط خاصة، وأهل الذمة عامة، فى مصر، على نحو يهيىء مجموعة قيمة من المراجع التاريخية. فقد قدمت للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف كتاب: «مصر فى فجر الإسلام» و «مصر الإسلامية وأهل الذمة». و «مصر فى عصر الولاة»، وقدمت للدكتور سلام شافعى محمود كتاب: «أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول»، وللمؤرخ «تريتون» كتاب: «أهل الذمة فى الإسلام»، الذى ترجمه المؤرخ الكبير الدكتور حسن حبشى هذا فى التاريخ الإسلامى. أما فى التاريخ الحديث فقد قدمت الدكتور محمد عفيفى: «الأقباط فى مصر فى العص[illegible] وبذلك تكون هذه السلسلة هى أول سلسلة تقدم للمكتب[illegible] العدد المتميز من الكتب التاريخية التى تعالج العلاقة [illegible] وأهل الذمة.

٣١٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب